سلسلة نصوص



الإمبراطورية الرومانية

تأليف باتريك لورو

ترجمة د. جورج كتوره



باتريك لورو

الإمبراطورية الرومانية

ترجمة

الدكتور جورج كتوره

دار الكتاب الجديد المتحدة

الإمبراطورية الرومانية

Original Title:
L'Empire Romain
by **Patrick Le Roux**

نشر هذا الكتاب لأول مرة باللغة الفرنسية عام 2005
في دار المطبوعات الجامعية الفرنسية في فرنسا

© دار الكتاب الجديد المتحدة 2008
الطبعة الأولى
كانون الثاني/يناير/أي النار 2008 إفرنجي

الإمبراطورية الرومانية

ترجمة الدكتور جورج كتوره

موضوع الكتاب تاريخ
تصميم الغلاف دار الكتاب الجديد المتحدة
الحجم 11.5 x 17.5 سم
التجليد عادي

ردمك ISBN 9959-29-367-x
(دار الكتب الوطنية/بنغازي ـ ليبيا)
رقم الإيداع المحلي 2005/6857

دار الكتاب الجديد المتحدة
الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس،
هاتف 04 03 75 1 961 + **خليوي** 39 39 93 3 961 +
05 03 75 1 961 + **فاكس** 07 03 75 1 961 +
ص.ب. 96-11 رياض الصلح ـ بيروت ـ لبنان
بريد إلكتروني szrekany@inco.com.lb
الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية
زاوية الدهماني، شارع أبي داود، بجانب سوق المهاري، طرابلس ـ الجماهيرية العظمى
هاتف وفاكس، 013 07 34 21 218 + **نقّال** 463 45 21 91 218 +
بريد إلكتروني: **oeabooks@yahoo.com**

مقدّمة المترجم

شكّلت المرحلة التاريخية التي عاشتها الإمبراطورية الرومانية مرحلة حاسمة في التاريخ العالمي، فمن حيث التوسع شهدت الإمبراطورية امتداداً واسعاً جداً جعلها من أكبر إمبراطوريات العالم القديم، ومن حيث الأحداث شهدت هذه المرحلة حروباً متلاحقة، لكنها شهدت أيضاً سلماً وصف بالسلم الدائم أحياناً، وقد تعزز هذا السلم، كما تعززت الحرب بالعديد من الامور القانونية، إذ شهدت الإمبراطورية تطوراً لم يكن معروفاً في العالم القديم، وهو الاعتراف بحق المواطنية، فالمواطن الروماني لم يكن تابعاً لإقليم معيّن أو لأسرة معيّنة أو لمنتصر بعينه، بل كان ذلك حقاً اكتسبه جميع سكان الإمبراطورية الشاسعة، كما أن حق الوصول إلى لقب الإمبراطور مع ما يتبعه وما يتعلق به، لم يكن حقاً محصوراً، بل كان حقاً تفرضه ظروف الحرب والسلم والانتصارات والهزائم، وهذا ما جعل الإمبراطورية تتعزز لفترة طويلة وتتفادى الانقسامات والمشاحنات ولم يكن ذلك يعني عدم وجود تطاحن على السلطة، في مساحة ضمت الجرمان إلى الايطاليين والأفارقة إلى الآسيويين، بل يعني إقراراً بحق الوصول دون عقبات مسبقة، وإن ظهرت العقبات لاحقاً، فإن إزالتها كان أمراً ميسوراً.

لكن ذلك ليس الأهم في هذه الإمبراطورية، التي شهدت

أيضاً ظهور الفلسفات المتعددة بوصول المسيحية والجدل الذي أثارته في أطراف الإمبراطورية وفي مركزها، وظهور القلق على هذا الدين الوافد ومنه أيضاً. الأمر الذي أدى إلى انقسامات متعددة ما يجعل إلى اليوم القول بصعوبة انهيار هذه الإمبراطورية، فحتى اليوم ما زال الجدل يدور حول أسباب هذا الانهيار.

بالانتقال إلى الكتاب المترجم هذا نرى أنه لم يستعرض الأمور العسكرية بقدْر ما استعرض الحياة الإدارية والثقافية والقانونية التي قامت عليها هذه الإمبراطورية، كما أشار إلى التشريعات وأنواع الحريات التي أعطيت للمواطنين، ما يجعل منه سجلاً ثقافياً وإنْ مصغراً لنمط الحياة السائدة على اتساع هذه الإمبراطورية، كذلك تطرق الكتاب وبدقة للحياة الديموغرافية إذ أعطى هذا الأمر أهمية خاصة، ربما لأنه وجد في هذا التنوع السكاني سبباً من أسباب النفور بين أرجاء الإمبراطورية، وربما من أسباب نكستها أيضاً أو انهيارها.

أشار الكتاب، وأحياناً بإسهاب، إلى الحروب الداخلية في قلب الإمبراطورية كالتضامن مع المسيحية ومع اليهودية أيضاً حيث تلعب الحروب الداخلية دوراً يسهم في تآكل الإمبراطورية من الداخل.

إن العودة إلى حقبة قديمة تعني الاستفادة من دروس التاريخ القديم والدفع بها نحو دروس جديدة، إن تاريخ الإمبراطوريات مشوق جداً، ولكنه مأسوي باستمرار، ولعل ما نشهده في الإمبراطوريات الحديثة، بصعودها وهبوطها درساً يستفاد منه بالإفادة من تاريخ إمبراطورية روما القديمة.

مقدّمـــة

ولدت الامبراطورية الرومانية رسمياً عام 27 ق.م، وانتهت بحسب بعض وجهات النظر مع احتلال روما من جانب قوط الألاريك Goths d'Alaric (من دلتا الدانوب) عام 410 أو عام 476، تاريخ سقوط إمبراطور الشرق نتيجة للغارات المتكررة التي قام بها الجرمان. في الوقائع، يصعب الإحاطة بدقة بمقطع من التاريخ لا يفهم إلا بالإحالة إلى الماضي اللاحق للحرب البونية الثانية، والذي لا يأخذ وحدته إلا من التاريخ السياسي. وبقدْر ما تفترض العودة إلى الحقبات المتأخرة اللجوء إلى مصادر مختلفة في أجزاء كثيرة منها، فإن الدراسة ستُحدد بالحقبة الكلاسيكية من الإمبراطورية - العليا. فعلى مدى ثلاثة قرون تقريباً قام، ثم فرض، نظام حكم على العالم، بقينا نحن وإلى درجة كبيرة من ورثته، حتى لو كان علينا أن نسجل منذ البداية غيرية البناء الإمبريالي. فبالرغم من التأثيرات التي لا مجال لإنكارها، فإن الإمبراطورية الرومانية لا يمكن أن تقارن بمملكة هللينية ذات طابع شخصي. فهي ليست دولة إقليمية قومية، ولا ملكية ذات طابع إطلاقي، ولا هي دكتاتورية شعبية، ولا نظاماً كليانياً، إن الامبراطورية الرومانية تظل تاريخياً بنية يصعب تصنيفها. لا تستقيم هيكليتها مع أي نموذج يسهل تصنيفه. أشارت الملكيات اللاحقة في أوروبا إلى هذا النموذج دون أن تستطيع إعادة إنتاجه. يخضع التعبير «إمبراطورية رومانية» لتحديدات جزئية متعددة

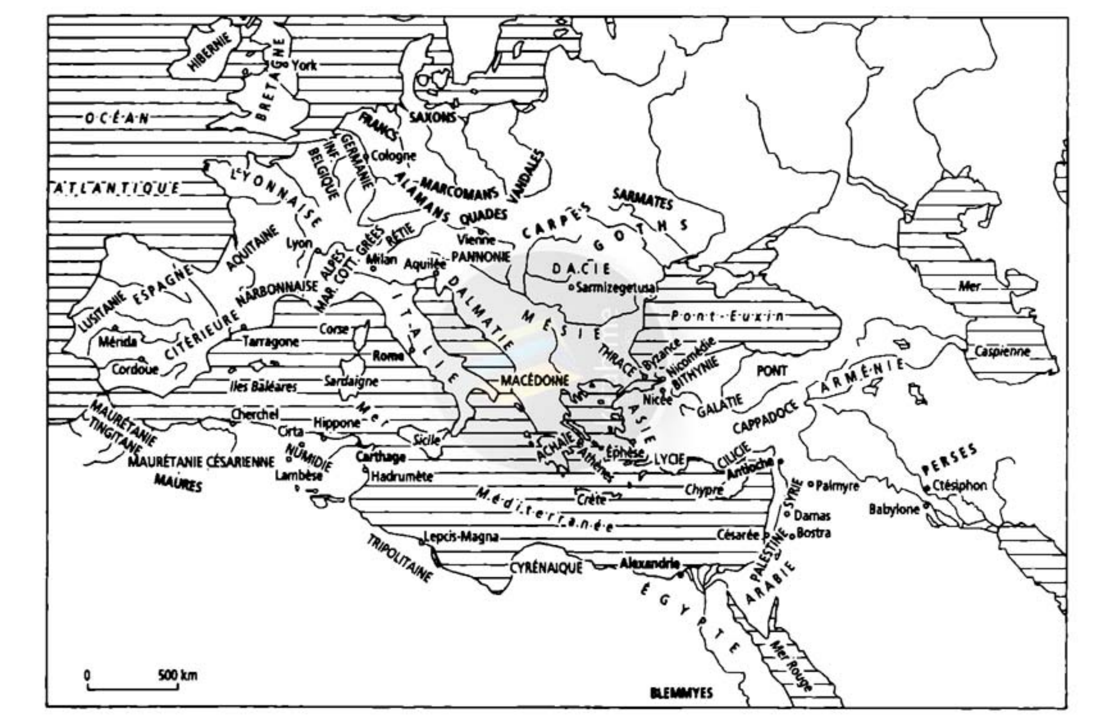
يجب علينا دراسة تقاطعاتها ليسهل لنا تقريبها. يعتقد الواحد منا بمعرفتها، لكن إدراكها يبدو تحدياً. ففي وقت ما، كان لا بد من تخليصها من التشابهات الخادعة مع الامبراطورية الإنكليزية أو الفرنسية. وفي أيامنا نجد أن الإمبراطورية الأميركية هي التي تنصب فخاً لهذه المفارقة التاريخية.

إذا أقمنا موازاة مع «الجمهورية» نجد في الإمبراطورية الرومانية إشارة إلى حقبة تاريخية عريضة من سيطرة القوة الرومانية في ظل قيادة القياصرة. وحدها الإمبراطورية تشير إلى شكل مؤسساتي وإقليمي من ممارسة سلطة ملكية تجمع بين القيم الأرستقراطية التقليدية، والحق العام مصدر الشرعية والبُعد الديني المترابط مع طرق تفكير النخب الرومانية أو الإقليمية. من حيث جغرافيتها جمعت الإمبراطورية الرومانية مزيجاً من الحواضر والجماعات المحلية التي انصهرت في جزء كبير منها مع شبكة العلاقات الاجتماعية التي انسكبت في قالب المجتمع الروماني لتؤلف كل واحدة منها مجتمعات ضرورية تراتبية ومتشابكة ثقافياً، بل متغيّرة الأشكال. أخيراً وبالنسبة لغير المتخصصين يغطي المفهوم نموذجاً من اتساع المواطنية الرومانية وتفتُّح حضارة حاملة لقيم نبيلة حملتها الآداب اللاتينية والتي تتصف أيضاً بالألقاب الإنسانية التي جرت في المسارح وباستمرارية العبودية، دون أن ننسى غلطة العسكر غير المنضبط والمحدود بمجرد أن يتخلى عن حقوق المعركة.

منذ ثلاثين سنة تضاعفت الأعمال في كل مجالات البحث وبخاصة في إطار الدول الحديثة التي كانت في مرحلة أو أخرى من تاريخها ضمن البناء الإمبريالي. والاستقصاءات تتوالى في التقليد المكتوب، اللاتيني واليوناني والذي وصلنا ولا يمكن الاستغناء عنه. والتجديدات تتولد غالباً من مقارعة كل الوثائق في

تنوعها: فإلى النصوص التي يقال إنها «أدبية» تضاف المصادر القانونية، والنقوش (التي لا تقتصر على اللاتينية أو اليونانية)، وأوراق البَرْدِيّ والنقود، وتاريخ الفن، دراسة الأيقونات والهندسة المعمارية، والموزاييك، والأغراض من كل الأنواع التي تأتت عن التنقيبات الأثرية، والتي أدخلت على التاريخ مهناً وتقنيات، دون نفي التبادل والاستعارات والتحولات الثقافية. إن كتابة تاريخ الإمبراطورية الرومانية يقارب اليوم حد المفارقة: فالغاية منه هي أن نجعل القارئ يقبل عالماً غير مألوف عنده، هذا بالرغم من التعمق المتزايد في مصادر المعلومة والمعارف ومن تنوعها. من هنا نجد أنه لا بد لنا من اختيار التركيز على التطورات الكرونولوجية الأساسية، وعلى تجديد التأويلات. هذا لا يعني إخفاء عدم اليقين، أو الغموض أو الهفوات التي ما زالت قائمة. فشفافية الرواية الظاهرة تمحو جزئياً التجميعات الحذرة والصبورة التي تفرض على من يمتهن التأريخ، وجوب تأويل المعطيات المتقطعة وغير المتجانسة.

يقدّم التاريخ الحدثي السياسي والعسكري إطاراً جيداً ولا يستغنى عنه. فهو يعطي روايات تحولات عالم روماني متعدد القطبية تواصلاً شكلياً. فممارسة السلطة، والحكم والإدارة في الأقاليم تعكس سيطرة مركز مدني وجهات نظره على تنظيم العلاقات داخل الإمبراطورية. دون ما تقدّم لن يتسنى لنا أن نقيّم بدقة، لا مكانة، ولا دور الحواضر والجماعات المحلية، ولا اتساع ولا تعقيدات ظواهر التسوية والابتكار والتمازجات التي تخفيها الحياة الخاصة، الدين وتلاقي التقاليد المتجددة أو التي تم إحياؤها. لم يكن للقوة الرومانية إلا معجبون ومؤيدون. وعلى السطح، ثمة قوى تتخاصم، بل وفي الداخل أيضاً، مجموعات متناحرة تدخل في مضاربة مع «الحضارة» (humanitas)، التي كانت سيطرة روما رافعة لها.



OCÉAN
ATLANTIQUE
HIBERNIE
BRETAGNE
York
FRANCS
SAXONS
GERMANIE INF.
BELGIQUE
Cologne
LYONNAISE
ALAMANS
MARCOMANS
VANDALES
QUADES
SARMATES
CARPES
GOTHS
AQUITAINE
Lyon
ALPES GRÉES
RÉTIE
Milan
Aquilée
Vienne
PANNONIE
DACIE
Sarmizegetusa
ESPAGNE
LUSITANIE
NARBONNAISE
ALPES MAR. COTT.
DALMATIE
ITALIE
MÉSIE
Pont-Euxin
Mer Caspienne
CITÉRIEURE
Mérida
Cordoue
Tarragone
Corse
Rome
THRACE
Byzance
Nicomédie
BITHYNIE
PONT
ARMÉNIE
Îles Baléares
Sardaigne
MACÉDOINE
Nicée
GALATIE
CAPPADOCE
ASIE
Mer
MAURÉTANIE TINGITANE
Cherchel
Hippone
Cirta
NUMIDIE
Sicile
Carthage
ACHAÏE
Athènes
Éphèse
LYCIE
CILICIE
Antioche
PERSES
MAURÉTANIE CÉSARIENNE
MAURES
Lambèse
Hadrumète
Chypre
SYRIE
Palmyre
Ctésiphon
Crète
Méditerranée
Babylone
Damas
Bostra
Césarée
Lepcis-Magna
TRIPOLITAINE
CYRÉNAÏQUE
Alexandrie
PALESTINE
ARABIE
ÉGYPTE
Mer Rouge
0
500 km
BLEMMYES

الفصل الأول

الإمبراطورية أو قوة روما

وُجدت الإمبراطورية الرومانية قبل العام 27 ق.م، بل حتى قبل انتصار أوكتافيوس (Octave) على أنطونيو وكليوپاتره (Antoine et Cléopâtre)، وهذا ما حصل على مرحلتين: في الفيوم، على البر وفي البحر، في 2 أيلول عام 31 ق.م. وفي الإسكندرية، باحتلال المدينة وانتحار الزوجين التعيسين، في أول آب عام 30 ق.م. والجمهورية القائمة على مجلس شيوخ بعد انتصار هنيبعل (Hannibal) عام 201 ق.م. كانت منذ ذلك التاريخ جمهورية إمبريالية قررت أن لا تترك مكاناً لأية قوة تخاصمها. بتورطها في صراع طويل النفس ضد المملكات الهللينية في المشرق بالاقتران مع الانتصار الصبور لشبه جزيرة إيبيريا، بعد هزيمة قرطاجة، تأقلمت روما مع ضرورات التوسع البعيد والملزم بالرجال وبالموارد. أوصلت سياسة السيطرة الإمبريالية إلى إعادة طرح السؤال حول التوازنات المؤسساتية: فالسلطة الملكية قد أظهرت وباطراد صراعات مدينة قام بها جنرالات طموحون، غير ملتزمين تدبير مجلس شيوخ غير جدير بإعادة الإجماع إلى المواطنين. بالرغم من انطباع لازم متأتٍّ في جزء منه من العظمة التي فرضتها التكوينات الإمبريالية، ثم إن قيام إمبراطورية أوغسطس

(Auguste) لا يعني انتهاء الانتصارات ولا قيام سلام لم يكن ليخرق. فالحروب المدنية، ومواكب العنف والمنافسات الأليمة قد أفسدت فقط التوسع الروماني. ثم تتابع التوسع دون انقطاع فعلي، رغم تردد الأمير. والمبادرة التي تختص بالقيصر قد سمحت بعد ذلك بمراقبة التوسع الإقليمي بشكل جيد، في حين كان ذلك سابقاً مرتبطاً بشهوات الطموحين الذين كانوا يسعون عبر هذه الثغرة إلى تعزيز سلطتهم دون التقاسم حتى مع روما. فالتاريخ الداخلي والتاريخ الخارجي من الإمبراطورية كانا منذ البداية مرتبطين بشكل وثيق. فالأزمات العسكرية في تلك الفترة كانت شهادة واضحة، وقد قللت في وقتٍ ما القوة الرومانية والسلطة الإمبريالية، دون أن تقضي عليهما.

I ـ النفوذ الروماني على العالم

تشغل الحرب موقعاً مركزياً في تاريخ إمبراطورية روما، وينطبق ذلك أيضاً على تاريخ العالم اليوناني. فقد تكوّنت الإمبراطورية على مدى أجيال، وبالدم وبشجاعة وسلاح الشعب الروماني ومع خصومه. ومن المناسب بشكل جيد أن نوضح المراحل، لا لغياب الحروب، بل للانتقال إلى الجانب الثاني من النشاطات الحربية. «فالسلم الروماني» قد ساعد وعلى مدى عقود حتى في المناطق الأكثر تعرضاً من الإمبراطورية، على تطوير أشكال سياسية واجتماعية وثقافية حتى بين الأكثر «حداثة» بنظر القدماء. والخطأ كان في اعتبار هذه الفترة ولمدى طويل فترة «سعيدة» كما لو كانت تسجيلاً لنقطة انتهاء، قريبة من الكمال، ما ألزم القرون اللاحقة على تسجيل فترة انحطاط لا مرد لها. فالإمبراطورية الرومانية، لا أكثر ولا أقل من الحقبات الأخرى، لم

تجد ما يتوجب لها من هذه اللعبة التأويلية دون ما مخاطرة وفي هذه التأملات الثنائية.

1 ـ نحو الإمبراطورية: في الأصل، لم يكن ثمة مشروع مخطط له من أجل السيطرة على العالم. وفي الوقت الذي كانت فيه روما تسيطر باطراد على خصومها في إيطاليا، كانت أيضاً تضع نصب عينيها مهمة الحفاظ على مصالحها في كل مكان توجب فيه ذلك. وبقدْر ما كانت توسع من قوتها كان المواطنون الرومان يتورطون في التوسع وفي رقابة الأراضي التي خضعت لهم. تولى الجيش الروماني مهمة تأمين النظام واستبعاد الأخطار التي يمكن أن يؤدي انتشارها إلى نتائج وخيمة تطال روما بالذات. والحرب ضد قرطاجة عبّرت مرة أخرى عن رفض الأعيان الرومان القبول بمنافس في حالة تأثر. إن تدمير المدينة البونية عام 146 ق.م مع التأكيد على خلق مقاطعة أفريقيا قد حرر على ما تقول المصادر المخاوف والطاقات. وفكرة قيام قوة رومانية لا تقهر ولا خصم لها والتي ولدت آنذاك لم تكن لتهتز بالمقاومة البطولية من مدينة نيمونس (Numance) في بلاد الإِسبان بين 139 و133 ق.م.

حاول تيبوريوس غراشوس (Ti. Gracchus) أحد النبلاء من الطبقة الأعلى، إعادة إقامة إدارة فلاحية حرة من ملاكين صغار كان التخفيف منها سيضع استمرار السيطرة الرومانية في خطر. فالفرق تستند تقليدياً على تجنيد عناصر فلاحية تمتاز بامتلاك الأرض (ضريبة إقطاعية). إن تحويل هذه الفرق إلى بروليتاريا ـ أي خسارة الضريبة بحد أدنى قد أدى إلى التسليم بالأولاد كإرث وحيد إن كان لهم من أولاد ـ قد أبعدها عن عمليات الالتفاف السنوية المتأسسة على اختيار الجنود: فالنظام كان يلزم كل

مواطن مسجلٍ في الإحصاء في الطبقات الخمس على الخدمة لوقت بحدٍ أدنى ما بين السابعة عشرة والسادسة والأربعين. إن القانون الزراعي الذي يحاربه أخصام محامي العامة كان مطبقاً. والنتيجة كانت أقل من تأليف مجموعة معتبرة من صغار الملاك من إعادة تعزيز الفرق ومن تقسيم الحاضرة إلى معسكرين: الذين يدافعون عن العامة، والذين يحمون سيطرة الأرستقراطية المشيخية التي كان يقدّر أنها في خطر. ففي عام 107 ق.م. أقدم كايوس ماريوس وهو رجل جديد انتخب قنصلاً على تحقيق ارتقاء النظام حيث صار على المواطنين التقدم للخدمة، لا على أساس نظام الطبقات. هكذا حل مبدأ التطوع الاختياري بدل الالتفاف الانتقائي (وإن لم يكن ذلك قد ظهر لأول مرة). كذلك توجب على الجنرال أن يقدّم وعوداً بالمكافأة، وتوزيع الأراضي من جديد كما حاوله تيبوريوس غراشوس المقدر له خلق احتياط من الفرق سيقر بعد ذلك الخدمات التي تقدم للجمهورية.

بين 91 و88 ق.م.، اندلعت الحرب الاجتماعية، أو حرب الحلفاء. يعود ذلك لتنامي عدد المواطنين بشكل كبير، وكان انتصار لأعداد المتطوعين على حساب جيوش الجنرالات الكبار. إلى جانب الجيوش التقليدية المتواجدة في الأقاليم لإقامة النظام ظهرت قوى متحركة بهدف الفتوحات وقد اكتسبت قوتها من قائدها الذي قادها إلى الانتصار، مصدر المكافآت والمغانم. هكذا يعتبر جيش قيصر الذي ظل على مدى سنوات ثمانٍ في بلاد الغال، النموذج المتحقق، وإن لم يكن بالنموذج الوحيد. اكتسب الإمبراطور قوة جديدة وبعداً جديداً في الانتصار وبسرعة إخضاع مناطق أرضية شاسعة نسبياً. انطلاقاً من نجاحاته أعلن مطالبته بالسلطة. ومقاومة خصومه دفعته ليقرر خوض معركة كل شيء من أجل كل شيء. فاجتاز مع فرقه حدود مقاطعته عابراً نهر

روبيكون «Rubicon» الصغير بين رافين وريميني «Ravenne et Rimini»، في آذار/مارس من العام 49 ق.م، مبتدئاً حرباً أهلية كان هو ضحيتها في آخر الأمر. وكان اغتياله في 15 آذار/مارس 44 عند أقدام تمثال خصمه بومبيوس (Pompée)، ما أكد سقوط سلطة بنيت على الدكتاتورية وأقيمت على عجل، دون حسن إدارة مع المعارضين. إلا أن القيصرية، أي إقامة سلطة إمبريالية في روما لم تمت مع قيصر: فليس صدفة أن يكون سيتانيوس (Suétone) قد ابتدأ سير الأباطرة الاثني عشر الأول مع الإمبراطور قيصر بالذات وأوكتافيوس لم يكن إلى ذلك سوى الابن بالتبني.

2 ـ **السلام والحرب**: مع مجيء أوغسطس توسع العالم الروماني (انظر الخارطة)، على جهتي المتوسط ليضم عدا إيطاليا التي تشكّل المركز، حوالى 20 إقليماً يضاف إليها الدول ـ الزبائن (ملوك، قبائل، حلفاء) والذين يعتبرون جزءاً مكملاً من الإمبراطورية رغم ما كانت تمتع به من حرية في الظاهر. إن إعادة تنظيم الجمهورية والإمبراطورية قد تأسس على نظام فكري جديد، على تصور عقلاني جديد يراعي ممارسة السلطة ونظام العالم: التقليد، والماضي كانا موضوع إعادة قراءة شاملة، وموضوع توليف مبتكر أعطى القوة الرومانية التي أعيد تأسيسها قواعد ثابتة وغير مسبوقة. فروما وريثة اليونان، والإسكندرية سيدة الأرض المسكونة كانت الضامن للسلم وللحضارة تجاة برابرة الخارج والداخل، أدوات الفوضى وزعزعة النظام. وبسيطرة روما يرتبط اندماجها المطرد في الإمبراطورية المتحضرة. وبذلك صار السلم هو التوسع الإمبريالي.

لم تختفِ الحرب كليّةً، وكارثة تيتوبورغ «Teutobourg» التي حصلت عام 9م والمتمثّلة في خسارة ثلاث فرق ملعونة (لا

وحدة في الأرقام من XVII إلى XIX)، أظهرت أن فكرة «الإمبراطورية اللامتناهية» تستدعي الحذر واليقظة. فجيش أوغسطس الدائم المحدد بثمان وعشرين فرقة أولاً ثم بخمس وعشرين محصناً بعدد أعلى دون شك من المساعدين (من 55 إلى 59% من العدد الفعلي) قد خضع تبعاً لمنطق إقليمي لإعادة بحث في جهوده وفي تقييم مخاطر المهاجمة. فمن الجهة الشرقية، كان إخضاع البارثيين هدفاً أساسياً. أما على الجانب الغربي، فكان لا بد من مراقبة الجرمان ومن امتصاصهم شيئاً فشيئاً. أما في أفريقيا الشمالية فقد تتابعت الانتصارات الفاعلة بحسب الأحداث وعلى حساب القبائل والشعوب الجبلية. تميّزت مرحلة يوليوس ـ كلوديوس (من 27 ق.م إلى 68م) بضم أقاليم جديدة: بريطانيا، مناطق الألب، مناطق الالب الداخلية، وما بين الدانوب والألب، ودالماسية «Dalmatie» (في كرواتيا) والدانوب الأوسط (Pannonie) وأخرى في البلقان بمحاذاة بلغاريا (Mésie) وتراقيا «Thrace»، وغالاطية «Galatie»، وليسي پامفيلي «Lycie-Pamphylie»، وكيليكيا «Cilicie» واليهودية وبرقة، كما صارت مناطق موريتانيا في دائرة السيطرة الرومانية. وبمعزل عن كل الظواهر، فإن نشاط الأباطرة العسكري قد تعزز في ظل الأسرة الفلافية (Les Flaviens) (من 69 إلى 96) وأسرة أنطونين (Antonin) من (96 إلى 192). ففي بريطانيا وجرمانيا وعلى جوانب الدانوب وفي الشرق كان تقدم المواقع الرومانية عاماً. فوالد زوجة تاسيتوس (Tacite) اغريكولا (Agricola)، قد هيّأ مع فرقة المنتصرة بناء جدار أدريانوس (Hadrien) الذي امتد مع جدار أنطونين الواقع على مسافة 100 كلم إلى الشمال. أما الإمبراطور دوميتيانوس (Domitien) فقد أسس إقليمي جرمانيا السفلي والأعلى، كما قام بتقسيم أقاليم في البلقان، إلى ميسيا الأعلى وميسيا السفلى،

مدشناً الهجمات على الدانوب باتجاه ترنسيلفانيا، أرض داسية (Daces ـ في رومانيا حالياً). وقد تمّ تخريب هذه الأراضي إبان هجمات حصلت عام (101 ـ 102) و(105 ـ 106) من قِبل طراخان (ماركوس أولبيوس طراخان (Trajan)) الذي أوجد إلى جانب ذلك مناطق على الدانوب الأوسط وفي البلدان الغربية، فهاجم البارثيين واحتل نينوى العاصمة على الفرات، مؤسساً إقليماً في منطقة الأشوريين بعد ما بين النهرين حول نَصيبين وأرمينيا التي تخلى عنها أدريانوس. ليس سهلاً أن نحدد المسؤوليات. أما الريف البارثي فلم يخضع كلياً لملك البارثيين فولوجيز الرابع (Vologèse IV). فقد توالت الأزمات في القرنين الثاني والثالث وكانت بعض قرارات الرومان لابردودنس خصومهم.

3 ـ «عصر حديد سياسي» (ديون كاسيوس Dion Cassius):

امتازت فترة حكم ماركوس أوريليوس (Marc Aurèle) (161 ـ 180) بسلسلة من الهجمات التي حدثت على الدانوب، وكان ردعها صعباً جداً. إن مشروع إقامة إقليم من أصول جرمانية فيما بعد الدانوب ظل أمنية مرجوة. استفاد كومودوس (Commode) ـ ماركوس أوريليوس من مهلة على ما يظهر، إلا أن جنونه قد شجع على المؤامرات. وكان مصرعه في 31 كانون الأول/يناير 192 إشارة لاندلاع حرب مدنية جديدة خرج منها سبتيموس سفيروس (Septime Sévère) منتصراً في ليون «Lyon» في شباط من عام 197. ضاعف سيد العالم الجديد من نشاطه في محاولة منه لاستعادة صورة القوة الرومانية، كما اهتم باستعادة النظام في جيشه وبإعطائه فاعلية جديدة. وفي المشرق حقق مقاطعة ما بين النهرين تقدم الجيش الروماني، وبالمقابل، فإن النتيجة قد تخففت في بريطانيا. فالإمبراطوز المريض مات في يورك. أما في أفريقيا الشمالية فإن عمليات التهدئة قد استمرت. وفي خريف 213

استطاع كراكلا (Caracalla) أن يهزم الألمان في مناطق الألب ما أتاح له الحصول على مهلة استمرت عشرين سنة، ثم كان أن خسر معركته، لحماقته مع البارثيين. سفيروس ألكسندر (Sévère Alexandre) يعود فجأة من المشرق دافعاً من شبابه هزيمته إزاء الجرمان عام 235. كانت القوة الرومانية وبفعل توسعها بالذات، وعلى مدى نصف قرن، تواجه التمردات المتكررة والمتزامنة غالب الأحيان والتي كانت تقوم بها القوى الخارجية في الإمبراطورية. لقد أساءت هذه الغزوات الغريبة لسلطة الإمبراطور بالذات. ثم كان الأسر المخزي جداً للإمبراطور فاليريانوس (Valérien) من قِبل شابور الأول (Sapor Ier) ملك الفرس عام 260، ورمزياً أثار ذلك الاضطراب في الذاكرة الإمبراطورية. شكّل هذا الأسر مرحلة قاتمة أبدى فيها الأباطرة بالخارجين من صفوف الجيش مقاومتهم واستعادوا المبادرة فاتحين بذلك الطريق أمام إصلاحات ديوقليطس (Dioclétien).

جمعت الإمبراطورية الرومانية وهي سلطة أكثر مما هي أرض، عدداً لامتساوياً من الجماعات المنصهرة في الحاضرة الرومانية بعد صدور «دستور أنطونين» عام 212 كما أعلنه كاراكلا. المركز الروماني كان سياج الإمبراطورية وكان المكان الصلب فيها. يضاف إلى ذلك نموذج الحضارة السياسية التي تتقاسمها نخبة محلية. إذا نظرنا إليه من الخارج، كان العالم الروماني يثير الحسد أكثر مما يثير الشك. إن تراكم المشاكل من كل نوع قد فرض على الرومان عودة متكررة إلى القوة، ما أثار الإرادة وردة الفعل بعدم الاعتراف بالهزيمة تجاه الخصوم على الجانبين. والتوازن الذي استندت إليه الإمبراطورية الرومانية على «الأرض المسكونة» كان توازناً هشاً تبعاً لقوة المناسبات.

II ـ الملكية في الممارسة

لم تخرج السلطة الإمبراطورية من روما معتمرة الخوذة ومسلحة من عجرفة جوبتير (Jupiter) الحامي المغري المقيم في الكابيتول Capitole. بالرغم من الدور الذي لعبه النشاط العسكري والانتصار أساساً لسيادة أوغسطس (لقب قياصرة الرومان) فإن الملكية الرومانية كانت، شأن النيل، نتاج التقاء مصادر متعددة، قادتها الحقائق على الأرض، وهي مصادر يصعب تحديد هويتها حين يتعلق الأمر بوضع تراتبية لها. كان لشخصية أوغسطس والمعنى السياسي عنده أثرهما الحاسم في نجاح مشروع لا عقيدة مؤكدة له، ولنظام لا دستور مكتوباً له. يشهد التطور غير المحسوب بالاستعانة بزملاء أباطرة غير متساوين على حساب الأحداث على ذرائعية المؤسس ولين عريكته.

1 ـ الأسس: اكتسبت الملكية الإمبراطورية التي أوجدها أوغسطس مظهراً مزدوجاً: إخضاع الجمهورية لسلطان الأمير (الأول في المواطنين) دون أن يقوم بإخفاء مؤسساتها؛ استئثار العائلة بالسلطة، القياصرة، وقد اجتمعت حول قائدها. وقد سهّلت الحروب الأهلية حدوث القطيعة. فالحروب لم تقطع مع التقاليد التي وضعتها الجمهورية المشيخية ولا مع القواعد التي أقامتها اللعبة السياسية الرومانية على إيقاع انتخابات الشعب. على الإمبراطور أن يحسب حساب ردات فعل الأعيان والعامة المدينية، والرومان في الأقاليم وفي الوحدات العسكرية التي تعسكر في روما أو في محيطها. وبدرجة أقوى أيضاً حساب الجيوش الإقليمية هذا ما يوصي به النص الذي اكتشف مؤخراً في Bétique (في إسبانيا) وهو نص يتناول في مجلس استشاري عقده

«مجلس أعيان روما» يتهم «كالبورنيوس بيزون (Cn. Pison)» بالتسبب بتسمم جرمانيكوس (Germanicus) وإثارة حرب أهلية. إن العناصر التي تتركب منها هذه الحاضرة ـ الأعيان، الفرسان، العامة المدينية من خمس وثلاثين قبيلة ـ وقد نالت الشكر لوفائها، إلا أن العواصم الإقليمية ومعسكرات الفرق قد ذكرت أيضاً بوصفها متلقية للإعلان عن القرار. كانت السلطة الرومانية تعيش في خوف من تمرد المضاربين المحتملين بمساعدة الفرق التي كانت تأتمر بأوامرها. كان إجماع المواطنين في كل أرجاء الإمبراطورية أمراً لا بد منه لأجل حسن سير الدولة.

لقد استطاع أوغسطس أن يُظهر نفسه متصالحاً ومتوازناً حيث يجب ذلك. وعلى هذا الأساس استطاع أن يُسكت العديد من الانشقاقات والعداوات دون أن يستأصلها. بالرغم من معارضة بعض الأعيان فقد استطاع أن يقيم سلطته وأن يؤكد تقدم «بيته» أو (domus augusta)، أي أسرته الموسعة التي تشكّلت من قرابة تعتمد حساب مصالحها. ما عدا ذلك أشار إلى رفعة القيم الأرستقراطية المشيخية في المجال الاجتماعي والأخلاقي، مقدماً عادات الأجداد أو ما يُعرف بـ (mos maiorum) معدلاً بإجراءات فاعلة ما يجب فعله، ما لا يمكن أن يقوم إلا بإرادة عليا، إرادة سيد الإمبراطورية: الحكومة، إدارة روما والأقاليم، الديانة العامة أو وظيفة الجنود. إن العبادة الإمبراطورية، التي تقوم على تأليه القيصر منذ العام 44ق.م.، كانت عبادة سارية في كل أرجاء المملكة. والتشريفات الدينية التي أعطيت لأوغسطس وهو حي، مبررة بوجوب إعطاء الإمبراطور على الصعيد الديني مكانة توازن ما يشغله شرعياً في الجمهورية التي أعيد بناؤها، قد هيأت ما خصص به بعد وفاته في 19 آب/أغسطس عام 14 في نول «Nole» في منطقة كومباني «Campanie» (إيطاليا). إن عبادة

الأباطرة لم تكن إلا الجانب الإمبراطوري من الديانة الرومانية العامة. لقد نجح أوغسطس، المنتصر الذي انتخبته الآلهة، الوريث بالوصية وابن قيصر بالتبني المالك لثروات لا يمكن لأي ثروة يملكها أعيان بموازاتها، نجح في إرساء نمط ملكي مقبول من المواطنين ومن النخب.

2 ـ **التعود**: تحدد شخصية الإمبراطور طريقة ممارسة السلطة. فمنذ تيباريوس (Tibère) (14 ـ 37) بدا واضحاً أن الحكم لم يكن موضع شك أو تساؤل. فلا مبالغات كاليغولا (Caligula) (37 ـ 41) الوحشية، ولا سخافات كلوديوس (Claude) (41 ـ 54) ولا جنون نيرون (Néron) (54 ـ 68) كانت لوحدها كافية لتضع ما أوجده أوغسطس موضع الخطر. إن أكثر ما كان يعترض قد تمثّل في تواجد الخصومات بشكل واضح في كل مرة كان الجو يثقل فيها إلى حد المبالغة. كان على مجلس الأعيان أن يأتلف مع قادة الحرس القيادي (المرتبط بالقائد الروماني) ومع أعضاء العائلة دون شك من أجل إنجاح أية مؤامرة. فلا شيء يبرهن بشكل يقيني أن تيباريوس وكلوديوس لم يكونا ضحية التهابات عصبية وأن يكونا قد ماتا بشكل طبيعي. أما كاليغولا فقد مات اغتيالاً وهو في سن الثامنة والعشرين، ودفع نيرون للانتحار في 9 حزيران/يونيو عام 68، وكان في الثلاثين بعد حكم استمر ثلاث عشرة سنة. ومهما يكن من أمر وبالرغم من الإعلانات ذات القيمة أو التي لا قيمة لها، فلا أحد كان يفكر بجدية في إلغاء الإمبراطورية. هكذا أثار اختفاء نيرون حرباً أهلية كان شبحها قد اختفى منذ ما يقارب قرناً من الزمان. وبغياب وريث معيّن وبغياب قائد لا يقبل المنازعة مختاراً من سلفه أو مقبولاً من الجميع بعد انتخابه بالمناداة من قبل الجنود فإن عدد المنافسين قد تضاعف. وفرق جرمانيا لم تجد ما يكفي لتأمين انتصار قائدها إذ خسرت

أمام فرق الدانوب المتحالفة مع فرق المشرق التي انتخبت ڤاسبيان (Vespasien).

انتصرت الأسرة الفلافية بانتصار (ت. فلافيوس ڤاسبيان (T. Flavius Vespasianus)) الذي نصّب إمبراطوراً في ظل ظروف جديدة. فقد توجب عليه، شأن أوغسطس، أن يعيد هذه المرة ترتيب شأن الإمبراطورية والنظام الإمبراطوري (69 ـ 79). يتحدر ڤاسبيان من إيطاليا ـ فقد ولد في ريات (Reate) في منطقة سابين (Sabine)، لا في روما أمثال المتحدرين من أسرة جوليو ـ كلوديان، وقد استجاب إلى اهتمامات النخب الإقليمية الأكثر نشاطاً، وعزز ما كان قد ضعف عبر الحروب الداخلية، وأعاد تأكيد تعلقه بالملكية التي أوجدها أوغسطس، حيث لم تستطع أية معارضة أن تقوضها. كان لبناء الكولوزيوم، أول مدرج مبني بالحجارة (حيث تقام ألعاب الشعب P. Zanker)، أثره في أعين الجميع، إذا أثبت اهتمام الإمبراطور بالمواطنين، ما يثبت أيضاً أنه الوحيد القادر على بناء مبانٍ مكلفة وكبيرة جداً. قام ابنه البكر تيتوس (Titus) (79 ـ 81) بتدشين المبنى وسط احتفال ومشاهد استمرت على مدى مئة يوم، عام 80، كما ترافق ذلك مع سك نقود تذكارية. ثم قام أخوه الأصغر دوميتيانوس (81 ـ 96) بإكمال البناء. بدت هذه الفترة من الحكم وكأنها استئناف جديد بعد الفترات السيئة أيام كاليغولا ونيرون. عاش الأقارب والأعيان فترات رعب ذلك أن دوميتيانوس كان يعيش مهووساً بفكرة المؤامرة التي تحاك باستمرار ضده. كان دوميتيانوس غيوراً على سلطته، وعلى القيم الإلٰهية التي يفترض أنها قد أخفيت على سلطته، وهو لم يترك إمبراطورية مستقرة تعيش في سلام. ولقد وسع ما قام به والده في مجال الإدارة وحقوق الحواضر. ثم استفاد طراخان بالعديد من مبادراته.

أدى اغتيال دوميتيانوس في 18 أيلول/سبتمبر 96 إلى تقرير وصول نيرڤا (Nerva) (ماركوس كاكسيوس 96 ـ 98) وكان كبيراً في السن. إن اختيار طراخان من قِبل زملائه وتبني ولايته (98 ـ 117) يعني وصول أول سيناتور تعود أصوله إلى الأقاليم منصب الإمبراطور: ولد م. فلابيوس طرايانوس (M. Vlpius Traianus) في إيطاليا (قرب إِشبيلية في منطقة باتيكا [إسبانيا]). كانت صورته في أعين من أتوا بعده صورة منتصر مدهش انعكس انتصاره على العمود التذكاري المزخرف في ميدان واسع وسط روما. كان عليه أن يواجه تمرداً قام به اليهود ما بين 115 و117 في سيرين «Cyrène»، والإسكندرية واليهودية دون شك. لقد كان شديد الاهتمام بإعادة القوة إلى إيطاليا، لتكون في المكانة الأولى. وقد أبدى احترامه لمجلس الأعيان وكان رمزاً لتبنٍّ ناجح، وقد راهن أمام أعين النخبة في مجلس الأعيان بحكومة ناجحة.

3 ـ الأحداث تحت التجربة: كان وصول طراخان إيذاناً بوصول فترة حكم أسرة أنطونين إلى قمة مجدها، وهي أسرة حاكمة تعود إلى والده المنتخب نيرڤا. جسد كلٌّ من أدريانوس (117 ـ 138) وأنطونين التقي (Antonin le Pieux) (138 ـ 161) السلم والازدهار في الحضارة الرومانية، حيث الثروة والسمعة الجيدة عند النخب قد تآزرتا مع الثقافة العالية. أما الإمبراطور الفيلسوف، ماركوس أوريليوس، فقد كان أكثر الأباطرة تعاسةً، إذ تعرضت الإمبراطورية لسلسلة من المساوئ كان يخيل أنها قد صارت طي النسيان: وباء، كثرة في الوفيات ونقص في الولادات، تهديدات من الخارج وغزوات مدمرة، فساد، حياة اقتصادية صعبة. أما إبنه كومودوس، الذي ولد وسط الغنى، فقد رفض أن يتبع والده والذين يتولون الدفاع إلى ما وراء الدانوب. وكان شديد

الاهتمام بأحلامه الإلهية دون أن يولي حظ الإمبراطورية الاهتمام الذي تستحق، فقد آثر النزول إلى حلبات الصراع مفضلاً أن يتمثّل في هرقل (Hercule). بسبب جنونه حصلت مؤامرة جديدة، والمستشارون وأهل المسؤولية في أعلى مستوياتها لم يعارضوا أبداً.

ثم ابتدأت مرحلة أسرة «سفريوس» (193 ـ 235)، حيث تتصف بالعصر الإمبراطوري الحديدي بحسب تعبير السيناتور ديون كاسيوس، مقارنة، أو مقابلة «بالعصر الذهبي». ومع ذلك فقد تغلبت آنذاك أفكار إعادة ترميم سلطة فاعلة ومحترمة، حتى لو على حساب الأعيان والتابعين لهم. أعيد إحياء الدولة لصالح الحاكم، وتم تحريك الثروات من أجل إعادة تجديد روما والقوة الإمبراطورية. وعلى ما يبدو فإن الحالة الديموغرافية والنقدية لم تكن على ما يرام، على امتداد الفترة السابقة. وبعض الأقاليم، مثل أفريقيا، لم تكن مزدهرة كما كانت في ذلك الوقت. وقد بدا واضحاً من وجهة نظر الأباطرة أن المسائل الخارجية قد تغلبت على المسائل الداخلية. فالانتصار، والمجد ونمو الإمبراطورية قد أعطيت أكثر من أي شيء آخر، كما سجلت غياب أية سياسة باستثناء ما يقوم على الانتصار والمناسبات. كان للإخفاق ثمنه الفائق. والحروب تتهدد الإمبراطورية في كل مكان، لم تعد الجيوش الإقليمية كافية لتواجه منذ بعض الوقت.

يعتبر وصول أسرة ماكسيمين (ماكسيموس) التراسي (Maximin le Thrace) إيذاناً باعتلاء الجنود منصب الأباطرة. أدت مقاومة أفريقيا والنخب المدنية إلى وصول أسرة غورديانوس (Les Gordiens) إلى السلطة (238 ـ 244). ولكن إلى أجل قصير. فالتشابك في الهزائم وما تبع ذلك من ريبة في الفرق العسكرية

قد تتالت. ومنذ عام 235 حتى عام 284 لم يمت أي إمبراطور في سريره. فالحروب الأهلية والمبارزات تتابعت بوتيرة متقاربة. وصارت المهنة على جانب كبير من الخطورة. والثورات المتتالية والمتقاربة على الحدود قد جعلت بنى الإمبراطورية والحكم والإدارة بنى هشة. إن تخليص القوة الإمبراطورية وحمايتها قد عززا التركيز على اتخاذ القرارات وعلى دفع السلطة باتجاه قوة تكون الحامي الحقيقي لوحدة الأقاليم، التي استدعت أن تكون مقسمة مع أتباعها سلطة ملكية وأن تكون أكثر من أي وقت مضى معنية بالآلهة وتدخلاتها. وأما مدينة روما فقد انقطعت أن تكون المكان الذي يقيم فيه الأباطرة.

لا وجود لنهاية زمانية يمكن أن تكون مقنعة: فسنوات 235، 260، 284، تسجل نهاية محتملة لإمبراطورية عليا لا نريد معارضتها بأمبراطورية دنيا آيلة إلى الزوال. فالتغيرات قد ظهرت، لكن دون خلق قطيعة مفاجئة. إن إمبراطورية القرن الرابع لم تعد لتتوازى مع إمبراطورية القرن الثاني حتى لو لم تضع شيئاً من عظمتها، فلم يعد لها الطموح نفسه ولا العلاقات نفسها مع العالم اللامرئي لسكان السماء.

الفصل الثاني

حكومة الأرض المسكونة

اقتفت الإمبراطورية الرومانية إمبراطورية روما: فلا وجود لمبدأ أرضي مؤسِّس لكل شكل من أشكال القانون فيها، ولا وجود لدولة مركزية، لم يكن لهذا البناء التاريخي حد محدد بشكل واضح ودائم. إن استعادة السلطة من قبل أوغسطس كان مناسبة لإعادة رسم العالم المعروف: روما في الوسط، تحيط بها إيطاليا وأقاليمها، وترقب قلب المنطقة المعتدلة؛ عضوياً، كانت المناطق الخارجية التي تعتبر مقبولة حتى لو كانت بعيدة جداً، تحافظ على توازنها من خلال السيطرة الإمبراطورية لروما. عَكَسَ النظام السياسي نظام الطبيعة، والانسجام الذي انبثق عنه كان تعبيراً للسلام الذي أرادته الآلهة. إن تمركز السلطة في شخص رجل كان يؤمِّن ترابط جسد واسع معرض باستمرار لفسخ أجزائه. إن عظمة «Vrbs» [نموذج روما] قد أوحت للكون بكامله أن روما كانت الرأس.

بعد تكاثر الحروب الأهلية صارت الأراضي الخاضعة لإمبراطورية روما بحاجة ماسّة للهدوء. من هنا فرضت عقلانية جديدة نفسها: تقسيم، تصنيفات، سياسة مالية إصلاحية، تكامل

في المكان، قلق في اتخاذ إجراءات حاسمة أوحى بعقلية جديدة وضعت في خدمة الإدارة في إيطاليا وفي الأقاليم. فالرقابة والتحقق والتوازن وإعادة الانطلاق، كلها أمور أتت في مجال البحث عن فن حكم صحيح.

I - الإمبراطور

أمير ـ الأول بين الأعيان ـ يمكن له أن يقرر في كل شيء. هذا ما عبّر عنه أوغسطس حرفياً في النص الذي أُعدّ ليُحفر على عمودين عند مدخل ضريحه الذي يعرف باسم «Res Gestae»، «هذا ما تمّ إنجازه». لقد حُبِيَ «السلطةَ» (التفوق الأخلاقي والديني)، ولم يعد «الشيوخ في روما القديمة» هم من يتصف بذلك، لقد حصر الإمبراطور بنفسه وبأقاربه إرث التقليد الأرستقراطي، وباسم ذلك كان يزعم قيامه بمهامه. والجمهورية المؤلفة من القضاة، والشيوخ والشعب المجتمع في المنتديات (الشعب الكتلة الناخبة) كانت تتصرف تحت رقابة سيد الإمبراطورية. والمرسوم الذي أقرّه مجلس الشيوخ في قضية بيزون (Pison) أيام تيباريوس، يستخدم صورة «حرس الدولة، وهذا ما يتطابق مع العقلية الأوغسطينية. فالإمبراطور كان حيث يقتضي الواجب»، بالمعنى العسكري، ليراقب وليتأكد من حسن سير المهمات التي تناط بالحاضرة الإمبراطورية. فتدخله الشخصي، وأسلوبه، وشخصيته، واهتمامه بشؤون الإمبراطورية، كل ذلك كان يؤثر على الحكم سلباً أو إيجاباً.

1 ـ سلطته: كان لا بد من إيلاء القيصر أوغسطس كامل مكانته. شكّلت مؤسسات الحاضرة نموذج الامتيازات الشرعية غير المعلنة التي تمتع بها. استند احتكار السلطة على القوة السياسية

والعسكرية (imperium)، وعلى القوة الخطابية. ولم تتخذ الإمبراطورية إلا عام 23ق.م. أي تحول. فمنذ الجلسة الشهيرة في 13 كانون الثاني عام 27 ق.م وحتى هذا التاريخ كان الإمبراطور قنصل روما وقنصلاً قديماً في عدد من الأقاليم حيث تتواجد الجيوش. إن التخلي عن مهمة القنصل من أجل المهمة الخطابية (مهمة المحاماة) دون التحديد المدرسي العام قد قاد إلى إعادة تعريف القوة السياسية والعسكرية: فأوغسطس كان شرعياً الوحيد المسموح له التخلي عن سلطته العسكرية حين يكون وسط المكان المخصص للشعائر والذي كان محيطه يتجاوز المساحة الدينية للمدنية. بالمقابل، فإن سلطة محامي العامة كانت تمارس في كافة أرجاء الإمبراطورية. وعلى هذا الجذع تقوم تخصيصات تنبع من هيئات القضاء التقليدية تتصارع فيها الأعراف والدين وبنود القانون، رقابة الشأن العام والأقاليم والعدالة. على الصعيد المؤسساتي كانت عامة الناس في خدمة الإمبراطور.

لم تكن القواعد التي حددها القانون كافية. فالإمبراطور الذي يتحصن بالحق ضد طموحات الأرستقراطية، فهو القائد الوحيد للجيوش، وهو من يحظى بدعم الآلهة، ولم يكن ذلك ليصدم أحداً. بعد وفاة ليبيدوس (Lépide) 12 ق.م. قام الإمبراطور بجعل الزعامة الدينية الكبرى امتيازاً إمبراطورياً مركزاً على قرارات تتناول الديانة العامة. وكما كانت الدولة تحكم تبعاً لسيطرة رجل، فإن إعادة بناء المؤسسة الدينية يجب أن تمر بمساحة خاصة بالإمبراطور، نموذج التقوى والمختار من قِبل الآلهة. إن التقديس الإمبراطوري قد حمل صورة سلطة ما فوق بشرية، لكنها ليست سلطة إلهية، وهي تأمن، أو تتمتع بسلام الآلهة. فالسلطة الرومانية بفضل الأباطرة الأحياء والأباطرة المؤلهين بعد وفاتهم كانت على

تواصل دقيق مع العالم اللامرئي الذي تطلب معاينته ورعايته من أجل جماعة المواطنين الرومان وشعوب الإمبراطورية. فلم يكن يُصار للمزج بين إمبراطور ميت وبين إله ما. والحوار المميّز مع الكائنات الإلٰهية كان علامة تفوق فردي من قِبل من تكون الإمبراطورية بين يديه. ففي شخص القياصرة تتركز الامتيازات التي تقوم على ممارسة مهمة تعتبر هرقلية، وصورة القوة المدهشة ذات الطبيعة الدينية. فشعب أوغسطس بتأثير التأليهات قد تطور طبيعياً إلى نوع من القرابة الإلٰهية.

رغم ذلك كله فإن النظام الإمبراطوري لا يشبه في شيء نظام الطغيان، أو نظام الملكية المطلقة. فعلى حد علمنا وبالرغم من التوحيد الكرونولوجي للإجراءات فلم نكن لنشهد وجود قانون عضوي يقيم السلطة الإمبراطورية وطرق انتقالها. ولا يمكن لمكونات الجمهورية أن تلخص بأدوات مؤسساتية، ثم إن ممارسة السلطة لا تقتصر على مراقبة وسائل الدعاية التي تستند إلى جهاز بوليس أكيد من إفلاته من القصاص. فالروح المدنية لم تختف خلف السحر ولا الكفاءة الأرستقراطية باختفاء المتحاربين. لقد كان للامتياز وللتقدير وللشعبية والاعتراف ثقلها القوي، كما كانت تستفيد من الحاكم الذي يحترم مصلحة الشعب، والخاصة والوطن. إن تنصيب الإمبراطور لم يكن ليدوم إلا لكون متولي السلطة قد أظهر أنه الأهل لذلك في نظر المجتمع والعامة والجيش. وفي حال الرعب، والظروف التحكيمية وسنوات القحط في روما أو الخسارة العسكرية المتكررة، كان القيصر عرضة للموت العنيف. يمكن لردات فعل المجتمع، التي غالباً ما تبدو أقل شجاعة بالظاهر في حالات توطد النظام، أن تخلق المؤامرات؛ فبعض أعضاء المجتمع يجعلون الحكم النهائي مرتبطاً بالألوهية، أو

بالعكس، «بإلغاء الذاكرة». فالقيصر الشاب، الذي لا تجربة له، كان لديه ما يخشاه من جانب أعضاء المجتمع (القناصل) المحنكين الذين يمكن انتخابهم بوصفهم أبطال حزب جديد. في بعض الأحيان، وباستثناء مناسبات محددة تكون السلطة فيها لغياب الوريث المعلن، أو بسبب تمرد على الحدود في حالة فراغ، فإن القادة السياسيين لا يملكون وسائل تساعد على تأكيد سلطتهم. بكل الأحوال لم يروا في الحرب الأهلية، لا الحل المرتجى، ولا المخرج الأفضل. إن طبيعة المؤسسة لم تكن موضع تساؤل. ولم يكن لدى الطامحين إلا حلم أن يصبحوا أباطرة، إذ لا شيء مكتوب يقول إن التسلسل النَّسَبي هو القاعدة التي يجب أن تتبع. أما في الوقائع وباستثناء وقت الأزمات، فإن صاحب اللقب غالباً ما يتم اختياره من المقرّبين. والأمير لم يكن مجرد مندوب بسيط في الجمهورية، ولا مناضلاً موهوباً أكثر من سواه. فقد كان للروح العسكرية وللتفوق في القيم الحربية وزنها أكثر من أي شيء آخر.

يُبرز بلاط القيصر إضاءات إضافية على ملكية لانمطية. فلا يمكن تجاهل وجوده، كما لا يمكن أيضاً أن تتخيله على نموذج بلاط فرساي «Versailles» زمن الملوك الكبار. إن التقاليد التي تطورت في البيوتات الأرستقراطية في الأزمنة السابقة قد أسهمت في نشوء بلاط إمبراطوري في ظل أوغسطس، علماً أن بنية البلاط غالباً ما تتعدل تبعاً للأحداث. كما كان لتأثير الملوك الهللينيين hellénistiques دورهم. من هنا كان اسم «aula» المستعار من اليونانية والذي أشار بداية إلى «بلاط مفتوح» في مدخل مسكن يؤدي بعد ذلك إلى «بلاط مركزي». وحول مسكن الحاكم (القصر في البداية) تكوّن نظام خاص من التواصل بين الأمير وبين بقية المواطنين. وقد تنحى فيتاليوس (Vitellius) فعلاً

بعد أن تخلى عن «قلعة الإمبراطور» مكان إقامة الحاكم بحسب ما يقول تاسيتوس. وعند سيتانيوس نجد أن كلمة «aula» قد حلّت محل domus (مسكن = منزل). كان البلاط، ومنذ أوغسطس يستقبل، عدا بعض قرارات أخرى، فئتين اجتماعيتين: العامة، والهيئات الأرستقراطية والفرسان. أما حضور المواطنين العاديين من أجل التحية الصباحية الاستثنائية فكان مُقَرّاً منذ زمن بعيد. وكان أعضاء المجمع يدعون بشكل منتظم حين لا يكون زمن انعقاد المجمع، ومعهم تتم دعوة الفرسان. ثمة عادات جديدة ظهرت منذ القرن الأول. إذ تطورت روح الممالقة. فوجدت تراتبية من أصدقاء الإمبراطور سرعان ما ترسخت زمن أدريانوس. كما برز التمايز بين التحية وبين التسليم علامة على التفرقة بين المقرّبين والنزلاء المميّزين وبين من لم يكن لهم إلا الحق بمجرد الزيارة، والمجاملة. أما الشرف الأكبر فيتمثل في الدخول إلى غرفة الإمبراطور (cubiculum)، المخصصة لعدد صغير. حاول كل من كاليغولا (Caligula) ودوميتيانوس (Domitien)، عادة لبس معطف مع غطاء للرأس كرداء إمبراطوري معد للطقوس العامة، لكنهما لم يستطيعا فرضه، كما حاولا إدخال عادة السجود أمام «الإمبراطور الإله» بالنسبة لمن يجالس الإمبراطور. أما الدعوة إلى الغداء في صالة القصر الجديد التي أطلق عليها دوميتيانوس اسم «قاعة طعام جوبيتر» فكانت بمثابة امتياز. ففي بعض الأوقات المحدودة والحاسمة كان البلاط بمثابة صورة لعظمة الأمير وعائلته.

2 ـ وظيفته: تطورت مهنة الإمبراطور. فكانت تشغل الأباطرة تبعاً لشخصيتهم وللعصر الذي حكموا فيه. وإذا أخذنا بأقوال سيتانيوس [المؤرخ]، فإن ڤاسبيان كان يقسم وقته بشكل كلاسيكي إلى فترتين: منذ ما قبل الفجر حتى ساعة

القيلولة (الثانية بعد الظهر) لحياة الإمبراطورية والدولة، ثم تأتي الحياة الخاصة تبعاً لإيقاع عادي، يركز بشكل خاص على وجبة وسط ما بعد الظهيرة، أو (cena) وتؤخذ في قاعة (Triclinium) إلا إذا تعلق الأمر بدعوة فعلية أو بإقامة مأدبة. إننا نعطي مجرد مثل، خارج روما، وفي حالة الانتقال، في رحلة أو في بعثة، كان الأباطرة يسافرون برفقة والٍ أو مدبرٍ للمعسكر [الروماني] والمستشارين أو المرافقين، والمساعدين والملفات. وكان الأباطرة حين لا ينشغلون بالمسائل الحربية يقومون بالاستماع إلى الحضور وإقامة المحاكمات وأعمال التنظيم. ولم تكن ممارسة السلطة مشدودة إلى روما، فالأعمال تتبع الإمبراطور حين يكون على سفر.

لم نجد إمبراطوراً واحداً لم يهتم بمهامه. كما لا يمكن رد عمل الأباطرة إلى إعطاء إجابات متتابعة على اهتمامات متعددة، وعلى إدارة أبوية للإمبراطورية. وإدخال قواعد العمل كانت أبعد من أن تكون ثابتة أو منهجية. كان الإمبراطور يستعلم عن الأمور ويأخذ رأي المستشارين الذين يسألون نظراً لكفاءاتهم في مجالات محددة فقط. وعلى ما يظهر، فإن لقب المستشار المرتبط بالقضاء لم يظهر قبل ماركوس أوريليوس. كانت المكاتب التي يديرها، إما أعضاء البيت الحاكم، أو الفرسان وأعضاء المجالس فيما بعد، تعد الملفات والقرارات، مع ما يتطلب ذلك من استقصاء، وعرائض، ومراسلة، وحسابات مالية، ونسخ من الأرشيف (عند نهاية القرن الثاني). لم يكن أدريانوس يتخذ قراراً إلا بعد العودة إلى دقائق الملفات. إن حريق القصر عام 192 قد أظهر أن مكان إقامة القيصر قد ضم قسماً كبيراً من الأرشيف الذي يغطي الحالة المدنية والمواطنية، وأدوار الجيش وجداول تقدمه. لم يكن نظام الحكم مرتبطاً بإرادة تحكمية.

يعطي الإمبراطور تعليماته، أو أوامره، لأنه كان مكلفاً بمراقبة مجمل الإمبراطورية. وكان ولاة الأقاليم، وقادة الوحدات العسكرية أو الجيش في تحركه، والوكلاء المكلفون بالمالية يتلقون التعليمات منه. كان إعداد القانون تقليدياً يقوم على مبادرة من القاضي الذي كان مشروعه خاضعاً للمنتديات المؤلفة من جمعية الشعب الناخبة. كان مجلس الأعيان يصدر المراسيم التي قد تستخدم بالمناوبة من قِبل القنصل أو المحامي عن العامة، لتصبح قوانين بالمعنى التقني: قرارات أقرّها الشعب بالتصويت. لم يقم الإمبراطور بتغيير هذه التوزيعة إلا ببطء، لا عبر تعليق الإجراءات السابقة بل بتطوير عميق ودائم لروح القانون دون أن ننسى التصغير المتكرر للنشاطات التشريعية في مجال القانون العام المخصص للمرحلة السابقة. في القانون الخاص حافظت أوامر القضاة الرومانيين على دور مؤثّر حتى عهد أدريانوس، إلا أن نشاط مجلس الأعيان قد تضاعف واغتنى بمجيء أسرة سفيروس الحاكمة. فالقياصرة أوكلوا إلى مجلس الأعيان أساس النشاط القضائي، إلا أن الشعب لم يُستبعد إلا مؤخراً عن كل إجراء تشريعي. والأمير لم يجعل من نفسه مصدراً وحيداً للقانون. صحيح أنه قد احتكر القضاء شيئاً فشيئاً مُصدراً، بحضور المستشارين والقضاة، عُرفاً إمبراطورياً نستطيع أن نتابع تطوره في القرارات، والمراسيم والرسائل والخطب التي تلقى في المجامع (orationes). أما أسرة سفيروس الحاكمة فقد خصصت «دولنة» القانون وتمركزه بقوة المجالس. فالإمبراطور لم يعد خاضعاً للحق وللقانون الذي يسهم في فرضه وفي إغنائه بعقلانية جديدة.

لم يكن للإمبراطور من زِيٍّ محدد. فلا صورة إمبراطورية موحدة كانت قادرة على الرمز إلى الوظيفة وعظمتها. فالنحات

وسك الصور النافرة على النقود كانت من المؤشرات. مرة بعد أخرى يأخذ الإمبراطور دور القاضي، والقائد الحربي. أما الكاهن فهو يجسد العدالة، ومناعة روما على رأس الإمبراطورية، والتقوى علامة على الخيار الإلهي. بثوب فضفاض يجلس على (كرسي من عاج، مقعد يمكن طيّه دون ظهر، وبقوائم متعالية، sella curulis). وليس على العرش الملكي المرتفع، فهو يعبّر عن السهر وعن الرأفة. وعلى الحصان فهو يرتدي الجلباب كما في حالات «الدخول الاحتفالية كالعودة إلى روما بعد بعثة معيّنة»، واقفاً يحمي صدره بدرع مزيّن بالمعدن والأوسمة رمزاً للانتصار، فالإمبراطور يذكّرنا بأنه الساهر على الأخطار التي تهدد الإمبراطورية بشكل دائم. رأس مغطى، بلفافة وبمشجاب، ما يوحي باحترام الآلهة التي يؤمّن لها القوة والحماية. ميتاً، فهو يبرز العري البطولي والإلهي، علامة على التأليه الذي يجعل منه مشابهاً للآلهة. مهما كانت هذه التمثلات فهي تمزج بين صفات أخذت من سجلات مختلفة بحسب التشارك في بلاغة السلطة.

تصور اللغة النقدية (على النقود) ضرورة تقريب الشخص والوظيفة الإمبراطورية من الشعوب ومن المواطنين البعيدين. يختار كل صاحب سلطة صوره ومواضيعه المفضلة دون أن يفرضها. فالرسم على النقود أو التمثال النصفي عليها (منذ عهد ماركوس أوريليوس) كان ضمانة لقيمة العملة. إن عظمة السلطة الإمبراطورية الظاهرة لا تحتاج إلا للتعبير عن ذاتها، ذلك أنها كانت معروفة ومرئية من قِبل الجميع. فالكذب والرياء يؤديان إلى عجز في مهمة القيصر، إلا أن هذه الحيل لم تكن لتوضع في إرادة الإقناع أو التربية أو بثٍّ عقيدة معيّنة. فقد أطلقت حرية الإيمان أو عدم الإيمان. إلى ذلك فإن الإمبراطور لا يمكن أن يتجاوز أبهته دون إخلال: لقد كان قلقاً عليها (P. Veyne).

3 ـ **الشعور الملكي**: بالرغم من البذور المتعددة الموجبة بوجود ملكية دولاتية، فإن الإمبراطورية الرومانية كانت ملكية شخصية أيضاً. فالالتحاق بالنظام الذي أوجده أوغسطس كان إلى حد ما مجمعاً عليه. فلا يمكن مع ذلك مقارنة المشاعر التي تبثها الإمبراطورية تجاه الشخص الإمبراطوري إلى من يستلهمون ملكية تعتبر طبيعية. دون شك، لا يتفهم أي روماني قيصراً لا تكون طموحاته كامنة في فعل الخير، وممارسة الفضيلة، واحترام قواعد الأخلاق، وتطبيق النظام وإشاعة السعادة حيث يجب وحيث يستطيع، كما لو كان أباً يقلق على أبنائه. لذا توجبت له الطاعة. وأما تعاطف المواطنين والجنود فكان يعبّر عنه إبان الأعياد السنوية المختلفة التي يحتفل بها الحاكم أو أفراد أسرته. وأبناء كاليغولا، كايوس (Caius) ولوكيوس (Lucius) قد استدرا البكاء، تماماً مثل جرمانيكوس (Germanius) الذي أشعل نبأ وفاته غضباً شعبياً. كما أن الأعمال السخية كانت تؤمن حب الأمير. ومع ذلك فإن الاعتراف بالشرعية لم يكن سائداً مرة وحيدة ونهائية.

كان للشعبية، وللصيت الجيد في أوساط الناس ثقله القوي في روما بالذات. قد تكون آراء العامة والنخبة والجيش عن سيد الإمبراطورية مختلفة. إن قراءة تاسيتوس وبلين (Pline) الشاب قد أظهرت أن السلطة كانت تحت رقابة أعضاء مجلس الشيوخ الذين يحبون تقريظ الإمبراطور بقيم أرستقراطية: الاعتدال، أو حس القياس، البساطة، العدالة، الاحترام والتقوى، الاهتمام بالقيم الحربية. والمواطنون يواجهون ذلك بالمجاملة والشفقة تجاههم. لم يكن القياصرة لا أصحاب إرث ولا ملّاك مملكة. وصحة الإمبراطورية الظاهرة كانت تغطي انتظارات المواطنين. وخطر الفوضى، والخوف من الهزيمة، والمبالغة في الكماليات والعنف

وعلامات الممارسة الطغيانية، كلها كانت مما يبرر الرغبة بالتخلص من سيد القصر. وحين تبدو المهمات العسكرية أكثر وجوباً للحسم، كان الجنود يحلون مكان الآخرين في الرأي. وأما النصر الذي تحمله الآلهة فكان موضع اعتراف قد يدوم وقد لا يدوم.

لم يكن للبُعد الديني للسلطة، وللقوة الإلٰهية الزائدة التي تمنح للحاكم شيئاً استثنائياً. تفترض مهمة إمبراطورية كإمبراطورية روما صفات ما فوق بشرية، كما تفترض الحظ أو القدر (fortuna باللاتينية، أو tyché باليونانية)، إنه نوع من التواطؤ مع العالم الإلهي، وهو ليس بعيداً كما نتخيله اليوم. والتعبد الإمبراطوري لم يكن أداة استعادة لصواب مفكّر فيه أو خادع. ثم إن فكرة تأليه الإمبراطور الميت والمكرس لم تكن تنم عن أية سذاجة أو قلة إخلاص. حتى لو قبل الإمبراطور ليكون مكانه بين الآلهة، فهو لم يكن ليوازي لا جوبيتر ولا إلٰه الحرب عند اليونان (المريخ). يفترض الظهور بمظهر الجدير بالوظيفة وبكل ما تفترض نظرياً من استحقاق الاحترام الخاص من جانب المواطنين، وهذا ما يضيف امتيازاً إلى عظمة روما وإمبراطوريتها التي يتعهدها أسيادها الإلٰهيون. تشكل عبادة الأباطرة جزءاً كاملاً من الديانة العامة، خاصة الأباطرة الأموات تجاه الأباطرة الأحياء ما يعكس شعوراً بالانصياع للإمبراطورية حتى لو لم يكن معللاً، إنها صياغة واضحة للعلاقات القوية التي نسجت بين المواطنين والسلطة التي قامت لتحافظ على عالم يحكمه النظام ويتناسب مع نظام الكون.

يستحيل على الإمبراطور أن يفعل كل شيء وأن يراقب كل شيء، وهذا ما يُخضع شخص الأمير لتوترات وضغوطات دائمة. فالظروف قد فرضت تقاسم المهمات بالتحالف مع مساعد من

صفٌ أدنى يعتبر بمثابة «قيصر» (تيتوس (Titus) في عهد ڤاسبيان، طراخان بالنسبة إلى نيرڤا (Nerva))، أو مع زميل يعطى أيضاً لقب أوغسطس. وقد عززت أوقات الأزمات العسكرية التي ترافقت مع حركات اغتصاب متعددة للسلطة، مثل هذه العادات. إن وحدة الوظيفة قد دفعت إلى هذا الاحتكار الشخصي للسلطة في سياق صار مجلس الأعيان عاجزاً عن تشكيل الجانب الآخر الموازي للأباطرة. بخضوعها إلى مخاطر الحركات العسكرية وبرقابة قادة الدولة العليا العسكريين، صارت الإمبراطورية المتجسدة في حامل هذا اللقب أو ذلك أميل إلى الابتعاد عن المواطنين لتبحث عن ضمانة أسياد السماء العليا.

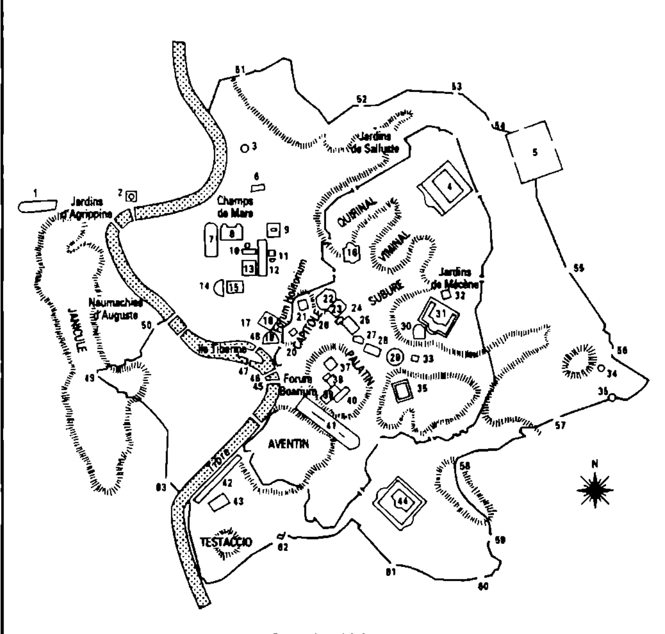
II ـ العاصمة: روما

أرسى الإمبراطور صورة كون يتركز على روما. كانت هذه المدينة المنتصرة وسيدة العالم العاصمة الوحيدة، مركز الإمبراطورية، والرأس المرئي الذي لا هوية له للأراضي التي تسيطر عليها وتقوم بتنظيمها. فحتى نهاية عهد آل سفيروس ظل الإمبراطور في روما ولا في أي مكان آخر. إبان صعود الإمبراطورية جمعت روما كل ما كان موجوداً في العالم المعروف كما يقول أوليوس أرستيدوس (Aelius Aristide). اتخذت المدينة مظهراً هائلاً لا مثيل له من خلال البرامج الإمبراطورية، وقد تحولت إلى نموذج مدني قبل أن تصبح الوطن المشترك. لقد صارت مدينة عالمية وكانت تعيش على تماس مع بقية الإمبراطورية، دون أن ننسى أنها كانت بمثابة حاضرة أيضاً.

1 ـ إعادة تعريفات: استطاع أوغسطس أن يستخرج كل النتائج من تطور مدني خاضع كلياً لرقابة الجمهورية إبان فترة الأزمات

والحروب الأهلية. لقد تمّت إعادة صياغة نموذج المكان: فمنذ القرن السابع قبل الميلاد كان الحديث عن روما ذات الأربع عشرة منطقة التي تغطي قرابة 1450 هكتاراً والتي يسكنها حوالى المليون نسمة دون احتساب الضواحي على الأرجح. تقسم المنطقة إلى أحياء ويرتفع عدد الأحياء الإجمالي إلى 265 حياً بحسب (Caius Plinius Seumdus) ثم إن التمييز بين قبائل ريفية وقبائل مدينية قد فقد معناه منذ التوحيد القضائي لإيطاليا. فالعامة المدينية التي استقطبت 35 قبيلة تحددت بامتلاكها لمنزل روماني. ثم إن النقاء الذي استجد لم يقضِ فجأة على التقسيم القديم. فالتبسيط المزمع قد أعطى الأولية إلى البُعد الطوبوغرافي على المجموعات البشرية بهدف تسهيل العمليات الإدارية والعودة إلى الجردات المرقمة. فرضت الإمبراطورية طريقة قد تكون أشد فعالية لأنها الأكثر تأقلماً مع رقابة دقيقة تقوم بها السلطات التي تحكم المدينة. تكامل التجديد المدني من خلال إقامة الألعاب المهداة إلى آلهة المنازل [عند الرومان] في أماكن الالتقاء وإلى عبقرية الإمبراطور: أداة انصهار سياسي وديني للصورة الإمبريالية في المساحة المدينية، وإقامة اتحادات حي يديرها معلم من أصل متواضع (عضو غالباً ما يكون محرراً من العامة الدنيا). يؤمّن للشعب الحاذق جزءاً من إقامة النظام كما يؤمّن إبقاء ذاكرة الأباطرة أبدية.

تشرّع الإمبراطورية والقوة القضائية تدخلات القيصر في حكم المجموعة السكنية. إن امتيازاتها قد جعلت كل ميل إلى الاستقلال مرفوضاً من جانب القضاة ومجلس الأعيان. لقد كانت روما شأناً رصيناً جداً وسياسياً جداً لا يمكن ترك أمورها إلى أعضاء مجلس الأعيان. اثنان من الولاة على خيام القائد كانوا عام 2ق.م. على رأس الكتائب المكوّنة منذ العام 26 ق.م، كانا يؤمّنان



Rome impériale

1 Cirque de Caligula
2 Mausolée d'Hadrien
3 Mausolée d'Auguste
4 Thermes de Dioclétien
5 Camp des prétoriens
6 Cadran solaire d'Auguste (Horologium)
7 Stade de Domitien
8 Thermes de Néron
9 Temple du divin Hadrien
10 Panthéon
11 Iseum
12 Saepta Julia
13 Thermes d'Agrippa
14 Théâtre de Pompée
15 Portique de Pompée
16 Thermes de Constantin
17 Cirque Flaminius
18 Portique d'Octavie
19 Théâtre de Marcellus
20 Temple de Jupiter Optimus Maximus
21 Arx
22 Forum de Trajan
23 Forum d'Auguste
24 Forum de Nerva
25 Forum de la Paix
26 Forum de César
27 Basilique de Constantin
28 Temple de Vénus et de Rome
29 Amphithéâtre Flavien (le Colisée)
30 Thermes de Titus
31 Thermes de Trajan
32 Portique de Livie
33 Ludus Magnus
34 Thermes d'Hélène
35 Amphithéâtre Castrense
36 Temple du divin Claude
37 Domus Tiberiana
38 Domus Flavia
39 Domus Augustana
40 Stade
41 Grand Cirque
42 Portique Aemilia
43 Horrea Galbana (Entrepôts de Galba)
44 Thermes de Caracalla
45 Pont Sublicius
46 Pont Aemilius
47 Pont Cestius
48 Pont Fabricius
49 Porta Aurelia
50 Porta Septimiana
51 Porta Flaminia
52 Porta Pinciana
53 Porta Salaria
54 Porta Nomentana
55 Porta Tiburtina
56 Porta Praenestina
57 Porta Asinaria
58 Porta Metronia
59 Porta Latina
60 Porta Appia
61 Porta Ardeatina
62 Porta Ostiensis
63 Porta Portuensis

أمن الدولة ويذكّران بأن جهاز الدولة كان بحاجة إلى قوة عسكرية. كان لا بد من انتظار سيانوس (Séjan) [رجل دولة روماني 16 ق.م. ـ 31 ب.م.] من أجل خلق معسكر خاص بروما، قرب باب نومنتان Nomentane على هضبة فيمينال «Viminal». ظلت الكتائب العسكرية هناك حتى عهد كومودوس (180 ـ 192) على ما يظهر. لم يكن ثمة اختلاط بين خيمة القائد وحرس الإمبراطور الشخصي المؤلف من الألمان والإسبان أول الأمر، وذلك قبل تشكيل «الفرسان الإمبراطوريين».

تولى عدد من المسؤولين إنجاز الخدمات التي أنشأها الإمبراطور: خدمة قنوات المياه، خدمة صيانة الأماكن العامة والأبنية، خدمة نهر التيبر وجوانبه ومجاريره. أما مكافحة الحرائق فتعود إلى فارس على رأس ست من الكتائب (واحدة لكل منطقتين) من رجال الإطفاء يشكّلون أيضاً حرساً ليلياً. ثم مدبر المدينة، وهو أحد أعضاء مجلس الشيوخ المدعومين الخاضعين مباشرة لسلطة الإمبراطور بالذات، وفي ظل تيباريوس كان قائد الكتائب المدينية ملحقاً بالشرطة النهارية.

إلى جانب الكوارث الطبيعية التي تحمل الأوبئة، كانت مسألة تمويل «التكتل السكاني» الروماني أمراً على الإمبراطور أن يوليه اهتماماً يومياً. منذ قرابة العام الثامن ميلادي أقرّت الدولة برنامج تموين يزوّد الدولة بالحبوب، الأساس الغذائي، ورمز الوفرة وحرية المواطن. لقد تمّ احتساب ما يوازي 400,000 طن، وحوالى 320,000 جرة (22,500 طن) من الزيت و1,5 مليون هكتوليتر من الخمر، وهذا ما يوازي الحاجات السنوية للاستهلاك في المدينة. تقاس الأهمية السياسية للغذاء من خلال استحالة وقف التوزيع الموسمي للقمح على حوالى 150,000 إلى 200,000 ممن تسجلوا على اللوائح

الرسمية. وقد استمر هذا الامتياز في كافة أرجاء الإمبراطورية. وقد سجلت عملية بناء الموانئ في شمال أوستيا في ظل حكم كلوديوس وطراخان إرادة الأباطرة في تأمين الحاجات الحيوية من أجل توطيد السلم الاجتماعي. كما أظهر فرونتين أن وفرة المياه قد شكّلت أيضاً أمراً يقلق الأباطرة باستمرار.

2 ـ **«مدينة القياصرة»**: بعد أن ابتدأت في القرن الأخير من الجمهورية، اتخذ برنامج التطور البنياني في العاصمة دورة جديدة منذ بداية وقت الإمبراطورية. أما المساكن الشعبية في قلب التجمع السكاني وأحياء (Vélabre أو Argilète, Subure) من ضمن الأحياء الأخرى، فقد تضاءلت إلى حد الاختفاء على حساب البنايات التي تعبّر عن عظمة الإمبراطورية وقوة روما. أدى استعمال الطوبة المشوية بدل الطوبة المجففة، وظهور حلول ومفاهيم عمرانية جديدة لتسهيل هذا التراجع في المساحة المسكونة؛ فالمساكن ذات الطوابق المتعددة المختلفة جداً من ناحية الرهافة كما تذكرها النصوص (ثمة قسم لا يستهان به كان معداً لإسكان الناس الميسورين)، شهدت فترة انطلاقة الحمامات والمراحيض العامة وتضاعف أماكن أصحاب المطاعم في الطوابق الأرضية. أما المساكن الأرستقراطية الأخيرة فقد كانت نقيضاً، في عهد دوميتيان، للقصر الرئاسي. هذا ما دعا الأباطرة لاحقاً إلى تحديدها بعد أن شغلت مساحات شاسعة. إن سيطرة الإمبراطورية على المدينة قد جعلت الارستقراطيين يكتفون بأماكن سكن أقل كلفة وبذخاً في أحياء من المدينة: إن تطور تصميمها يبرز تراجعاً جزئياً في الحياة الخاصة. والفيلات كانت من نصيب الأغنياء. وكانت المساحات واسعة فيها. فالجنائن والبساتين تحمي الأجنحة والحمامات وأماكن التسلية والراحة. أما المساكن المحاطة بمساحات خضراء (horti) فلم تكن لتقارن بالمظاهر الأرستقراطية.

اتخذ الأباطرة مبادرات متعددة فيما خص البناءات العامة، دون أن يضع ذلك حداً للنشاطات الخاصة. لقد أظهر أوكتافيوس وأوغسطس الطريق إذ أَوكلا أغريبا (Agrippa) بالأشغال العامة ثم فيما بعد إلى أصحاب التجربة من أهل الأعيان. حرّك كلوديوس التدخل الإمبراطوري على حساب رقابة مجلس الأعيان سواء تعلق الأمر بالتمويل أو باستخدام الموظفين المختصين في أعمال الهندسة والبناء. في ظل حكم أسرة فلافيوس يبدو أن التركيز قد انحصر بالوسائل الإدارية والتقنية في أيدي السلطة، هذا لا يعني أن «البيوت القيصرية» قد أبصرت النور. فالإشارة هنا إلى مشاريع وإنجازات على كل أسياد الإمبراطورية تحقيقها. أما الوسائل المتاحة له فكانت لا تقاس مقارنة بأعضاء مجلس الأعيان والفرسان الأغنياء. فلم يسبق قبل الآن، أن بلغت الأبنية العامة مثل هذه الدرجة. والبرامج والقرارات لم تكن لتفرض بشكل تحكمي. فانتزاع الملكيات وطبيعة الأبنية ومنفعتها العامة، بل حتى صورتها الجمالية كانت تثير ردات فعل العامة التي تشير إلى بعض المصادر. أما الأبنية الدينية، بغالبيتها فكانت تتراكم في المعابد القديمة. تشغل مسائل المساحة والمال مكانة حاسمة، ويسود الاعتقاد أن أنطونين التقي الذي خلف أدريانوس قد تصرف كما لو كان محروماً من الأرض ومن الوسائل.

يُصار إلى الحديث عن «هندسة التمثلات» (P. Gros). ثم إن للأبنية وظيفة أخرى، أن تكون نقطة إرشاد، أو أمكنة مميّزة تساعد على التحرك فيها وسط مساحة مدينية لا معالم فيها، تصميم بعيد عن التخطيط المربع بالزوايا القائمة الذي يمكن إقامته في مكان آخر غير روما. إن السمات الأساسية للمنشآت الإمبراطورية تعني وضع اليد على القصر الرئاسي والقطاعات

المركزية حول الميدان الروماني، الكابيتول، الكيرينال Quirinal، والڤيمينال Viminal، والأسكالين Esquilin وكاليوس Caelius. ثمة سمة أخرى نجدها بعد بومبيوس (Pompée) وقيصر في الإشغال المنسق لموقع «مارس». إن الميادين الإمبراطورية قد جعلت عمل الأباطرة السياسي استمرارية لِما أراده الشعب الروماني: فهم يعبِّرون أيضاً عن ضبط حاد ومتزايد عن ذاكرة النظامَ الجديد وعظمته بوصفه الضامن للماضي المنتصر والحاضر السعيد. إن التعبير عن السلطة بالأبنية الاستثنائية كان إعلاناً عن الإجماع الذي انوجد مع توافق الآلهة. إن غنى الزخرفة كان نوعاً من التجديد في روما. معابد ضخمة حمامات عامة بأبعاد مجهولة، أبنية ضخمة، ممرات وبوابات تأخذ مكانها في محيط له مكانته. إن الأعمال الزخرفية المزينة بالمرمر وبالنتوءات ذات التأثيرات الأخّاذة كانت تقول جميعها بأن روما كانت سيدة العالم المعروف، وأن أصحاب السلطة كانوا المؤتمنين على عظمتها وعلى مجدها. إن الارتباطات الهندسية بين مجموعات بنائية مفردة كانت تعزز المكانة الرمزية لإخراج يقوم على خطاب باستطاعة كل فرد أن يؤوله على مزاجه. كتب ب. زانكر (P. Zanker) واضعاً برنامج الكولوزيوم Colisée الذي حل محل «بيت الذهب» كما لو كان التعبير المتكامل عن دور مركزي لتسليات تعد للشعب.

والمسرح الذي بُني في عهد أسرة فلافيوس كان بدوره مساحة مقفلة، وذلك بسبب الألعاب الدموية التي كانت تقام داخله ولا يجب أن تخرج إلى الخارج؛ لم يكن مسرحاً مقطوعاً عن العالم الخارجي حيث يتصل بشبكة من الممرات ومن طرق المواصلات التي تصله إلى المدرجات التي بُنيت بنمط تراتبي.

3 ـ الابنية الحكومية: يعتبر القصر الحكومي والأماكن المحاطة بالجنائن والخاضعة للإمبراطور أماكن سكن السيد، الحاكم الأوحد الذي اختارته الآلهة. مع ذلك فإن الأبنية المخصصة للحكومة في روما وللإمبراطورية لم تكن تشكل حياً إدارياً مستقلاً يمكن تحديد هويته. لا وجود لهندسة خاصة مميّزة تختص بأماكن المكاتب أو للأبنية التي يديرها مساعدو الإمبراطورية. فالأبنية التي لها مقاصد واضحة كالمعابد أو الكنائس لم تكن لتقتصر على وظائف دينية أو قضائية. ففي ظل الإمبراطورية، كان تشتيت أماكن الحكومة والأماكن التي تهيأ فيها القرارات التي تلزم روما وما يخضع لها من أراضٍ أمراً فيها شيء من الإلزام. إن أعمال المدينة وأعمال إيطاليا وسائر أجزاء العالم لم تتميّز إلا شيئاً فشيئاً، إلا أن ما حدث في روما لم تكن له دلالة تحدد بدقة بالمساحة الدينية. فالتقنيات الإدارية تطورت بتأثير تعدد النشاطات والمسائل المثارة. إن الرجوع إلى الأرشيفات وتبادل المعلومات والمراسلات، وممارسة الاستقصاءات المعقدة والأكثر تقدماً والعودة إلى الأنظمة السابقة وزيادة الاهتمام بالقضاء وضرورة الاستجابة إلى اهتمامات المواطنين المتزايدة، والاهتمام بالحواضر والجماعات والجنود، كل ذلك قد شكّل بنية شبكة عملية ثقيلة ومعقدة. ومع ذلك فلا شيء يوحي بتفجّر بيروقراطية ورقية خانقة.

إن مساهمة مجلس الشيوخ في مسيرة الإمبراطورية قد اتخذ دوراً جديداً، فمجلس المشيخة الرومانية الذي يتخذ من الميدان مقراً له لم يكن تقليدياً إلا أحد أمكنة الاجتماع الممكنة. ذلك أن طبيعة الأمر اليومي قد راعت التحول العرضي للاجتماعات التي تعقد في المعبد، لألوهية يحكم عليها بفعاليتها في النقطة التي تثيرها. إن مجلس المشيخة الرومانية في عهد بومبيوس كان

مقرراً على ما يظهر بعد موت قيصر في 15 آذار/مارس عام 44ق.م. أما أوائل الأباطرة فلم يقطعوا فجأةً مع تنوع الأماكن التي يدعون فيها للاجتماعات. فالأمير قد يتخذ من مجلس الشيوخ مقراً له إذا ما أراد، ثم كان يتمّ التخاطب عبر الرسائل مع المجمع. فالمهم أن يبدو مختلفاً. كما أن مجلس المشيخة (Curia Iulia) في عهد جوليانوس (César) وقد رمم من قِبل قيصر بعد احتراقه، قد تحول ليصبح مكان الالتقاءات العادية طيلة القرن الأول. أوكل تيباريوس إلى المجمع حق انتخاب القضاة، وكانت تتم بحسب روزنامة منتظمة. يتكلف «الشيوخ الرومان» بمنح أوسمة الشرف إلى الأمراء وإلى أهاليهم خارج إطار التنصيب والسيامة: انتصارات، إقامة تماثيل، تكريمات خاصة بما في ذلك ما خص الأعيان. أما دوميتيانوس فقد تلقى من الأعيان حق إعطاء اسمه إلى شهر تشرين الأول/أكتوبر، شهر الولادة، إزاء شهرَي تموز/يوليو وآب/أغسطس اللذين أعطيا إلى قيصر وأوغسطس. تدخل المالية والنقد (وما يخص سك العملة البرونزية) والتشريع، والدين والأشغال المتعلقة بالأقاليم (سفارات، أحكام، مساعدات وتكريم الحواضر، معلومات عسكرية) في مداولاته. لم تكن المشيخة ببساطة المركز الوحيد لاتخاذ القرارات، فهي لا تشكّل إلا دولاباً من جملة دواليب أخرى ترتبط بالآلية الحكومية.

تشكّل بصمة الدولة وأدوات السلطة هندسة مركز العاصمة. فمعبد جانوس (Janus)، في الميدان الروماني يغلق أبوابه من أجل احتباس السلم الذي استجد. وبوابة مينيسيوس Minucius في ساحة مارس تستقبل شعائر توزيع الحنطة. فلكل الحق بذلك، حاملاً قسيمته أو فيشته، وكيساً من القماش، كان يتلقى هناك كل شهر وفي يوم محدد على الشباك المعيّن له، حصته من (6,6 كلغ) تقريباً. إن محطة مدبر المحصول كانت إلى جانب ميدان

بواريوم boarium (قديماً «سوق الأبقار»). قام ڤاسبيان بإزاحة ولاية المدينة من روما، وتحريك تصميم المدينة إلى معبد السلم. أما والي Vigiles فكان مقره على الأرجح إلى الجنوب من ميدان «مارس»، في «Crypta Balbi». كما انتقل مركز سك العملة الإمبراطوري إلى القلعة بالقرب من معبد جينون Junon (إلَهة الأنوثة) «المنذرة» بالأخطار أيام كاليوس (Caelius) بعد حريق العام 80م. والبناء الواسعِ بواجهته المكوّنة من طوابق بين الكابيتول والقلعة كان «مقراً للأرشيف» حيث كان يضم منذ العام 78 ق.م النصوص والوثائق الخاصة بالدولة. ولم يعد يتسع للمزيد. ونحن نعلم من قِبل المؤرخ سيتانيوس أن الكابيتول بالذات كان يضم حوالى 3000 لوحة من البرونز أعاد ڤاسبيان تكوينها بعد حريق العام 69. ثمة بنايات مختلفة وميادين إمبراطورية تضم مكتبات، أي العديد من الأرشيفات التي تفيد السلطة والإدارة إلى جانب رفوف من آثار يُرجع إليها. ثمة متحف رسوم كامل من الزخارف والتماثيل الذهبية قد استحضرت من القدس ووضعت في معبد السلم. يتمّ الاحتفاظ بلائحة [أسماء المواطنين الأحرار، أو المعتقين، بعد تدمير (atrium Libertatis) في مضبطة في بازيليك موجودة في ميدان طراخان، أكثر ميادين الإمبراطورية اتساعاً. كان ظل الإمبراطور دائم الحضور. والإله المنتقم «مارس» قد أزال جوپيتر عن جزء من موهبته العسكرية والمنتصرة: ففي وسط ميدان أوغسطس كانت تتم شعائر الانطلاق إلى الحرب وأمنيات الحكام الذين هم على أهبة الانطلاق إلى أقاليمهم.

III - إدارة الأقاليم

يؤكد الرومان أنه من السهولة بمكان احتلال أرض ما؛ إلا أن الاحتفاظ بها هو المهمة الأصعب (Dion Cassius). وقد شهدت الإمبراطورية النور جراء غلطة إيجاد حل دائم في هذا المجال. وإعادة التنظيم العسكري كان أحد المفاتيح: فتبنّي طرائق جديدة في الحكم كان ضرورة لا بد منها. وقد أرسى أوغسطس قواعد تنظيم متجدد كان امتداد أجله رهناً بنجاحه.

1 ـ **البُعد العسكري**: يرتبط النظام الإقليمي الجديد في جزء كبير منه بإعادة تعريف الإمبراطورية لصالح أوغسطس: كان لا بد، بعد الحروب الأهلية، من تحاشي المنافسة بين الأباطرة. إن فكرة إنشاء جيوش دائمة، تتفرغ لمراقبة الأراضي ولحماية الإمبراطورية ، قد سهّلت المراقبة وفرضت سلطة موحدة. إن الابتعاد الدائم عن مسارح العمليات بالنسبة للمركز الروماني قد فرض وجود معسكرات حماية على أطراف الإمبراطورية. كما استقبلت مناطق التهدئة المتأخرة ـ شمال شرق شبه جزيرة إيبيريا، والقطاع الغربي من أفريقيا، بعض الفرق أيضاً. أما التمركزات الأكثر أهمية في قطاع الراين والدانوب الأعلى وفي الشرق، في سوريا ومصر، فقد كانت نسخة عن جغرافية الدفعات الرومانية والأخطار الحقيقية أو التي يفترض أن تنتج عنها. كانت العناصر التي تبدو ضرورية جِدُّ محدودة حيث افترض أوغسطس الاكتفاء بثمانٍ وعشرين فرقة ثم بخمس وعشرين (بعد المجزرة التي حلّت بفرق ثلاث في تويتبورغ «Teutobourg» والتي لم تُستبدل بفرق جديدة). فالخسائر وإعادة خلق الفرق قد تتابعا طيلة فترة التطور. في القرن الثالث، ارتفع العدد إلى 33 فرقة، إلا

أن الانتصارات قد توالت. وبحسب الأمكنة وبحسب المناسبات كان الجسم المساعد قد بلغ ما نسبته بين 50 و59% من قوى الجيش الإقليمي. إن العدد الذي يتراوح بين 350,000 و400,000 جندي (مع أو بدون الفرق في روما وبدون الأسطول) قد شكّل نظام قوة. إن غياب الخصوم القادرين على اتخاذ المبادرة والأقوياء، إلى جانب الحدود التكتيكية لاستخدام جماهير مناورة تزيد عن 10 فرق، إلى جانب حلول أخرى يتم التنافس فيها على الأرض، كل ذلك قد أحاط بالخيارات الموزونة والمدروسة. لم تُدرس المواقف إطلاقاً حتى في المناسبات الكبرى بعبارات استراتيجيات شاملة تتخذها هيئة الأركان الإمبراطورية. وحين يتقرر إرسال بعثة كبرى، كان لا بد من استدعاء وحدات تؤخذ من عدة أقاليم، وأحياناً دون أخذ مخاطر عدم التوازن التي قد تحصل بالاعتبار. لم يكن للإمبراطورية الرومانية معالم معلنة وقائمة. لم يعلن أوغسطس ولا أي من الذين توالوا بعده انتهاء التوسع. فالحدود التي كانت في البداية طريقاً أو مكاناً للنفاذ لم تكن إلا في مرحلة متأخرة حدوداً محصنة ودائمة. فاستعمال كلمة حدود لم يشكّل أبداً صدى للتعبير عن استراتيجية دفاعية على مستوى الإمبراطورية حتى في القرن الرابع.

تعرّضت الخريطة العسكرية مراراً لإعادة التشكُّل، ولإعادة توزيع الفرق وتحركها. حتى لو اختلفت هذه العمليات من حيث القوة، فهي قد صارت عادة. فنحن لا نشهد تغيرات حاسمة في المفاهيم وفي الممارسات ذات الطابع الاستراتيجي. حملت أحداث القرن الثالث الإمبراطورية على تبنّي تكتيكات ترتبط بالأعداء وبطرق إدارة معاركها. فالجيوش الإقليمية التي تأسست على التجنيد الاختياري، إلا في حالات معاكسة، قد لبّت حاجة المجتمع

الذي يجنح للسلم، والقلق إزاء مخاطر تهدده من الداخل ومن الخارج حتى لو لم تكن مخاطر يمكن توقعها. مع الوقت ضمت الوحدات غالبية من الجنود يأتون من قطاعات جغرافية قريبة من أماكن إقامتها. وبغياب قوى شرطة متخصصة ومستقلة، كانت الفرق تسهم، شأن فرق الحماية المدينية في روما، في استتباب النظام في الأقاليم. شكل الجيش أداة محددة في التنظيم الإداري في الإمبراطورية منذ البداية. أبدى أوغسطس ميله إلى تحديد مصالح الرومان وحدود الأقاليم بشكل جيد، ما أعطاها هوية واستمرارية ضروريتين من أجل سير الأعمال بشكل جيد، هذا ما يظهر من قراءة جدول تاريخ الطبيعة الذي وضعه [المؤرخ] بلين القديم.

لا حدود بسيطة يمتاز به الإقليم: فالإقليم ليس أرضاً بالمعنى الحديث، ولا هو مجال شخصي لأحد الولاة، أو قضاة الشعب الروماني. بداية، كان الإقليم «دائرة تنافس» (C. Nicolet) مؤقتة لممثل عن الجمهورية (الشعب) في حدود مكانية وزمانية دقيقة. أصبح العامل الأرضي بالغ السيطرة منذ نهاية الجمهورية، هذا لا يمنع الانفصالات وإعادة التوحد التي تقررها الظروف. فالمناطق التي تأخذ اسم «إقليم» تكتسب ثباتاً وديمومة، خاصة حين يفقد البعد العسكري من وزنه بفعل الاستئثار الإمبراطوري. وحده الإمبراطور (الأوغسطس) هو الذي يقرر خلق إقليم جديد أو توسيع مجال إقليم موجود. على الصعيد الإداري اتخذ التوزيع الإقليمي شكل لائحة أبجدية من جماعات تحدد هوياتها بمراسم ومقام ووضعية قانونية. لم يكن البُعد العسكري أساساً وبالدرجة نفسها في كل الأقاليم التي تسلك طرق «الحكومة» تحت رقابة الإمبراطور وحمايته.

2 ـ أقاليم الشعب الروماني: تماشياً مع التقليد في روما، كانت الأقاليم تاريخياً وقانونياً أقاليم الشعب الفاتح. إن قانون العام 27ق.م. الذي كان أساس التوزيع الجديد الذي تحدث عنه سترابون (Strabon) وديون كاسيوس، قد أدخل وصاية إمبراطورية على المواطنين تكمل وصاية مجلس الشيوخ. فقد تم الحديث مطولاً عن «أقاليم تتبع مجلس الشيوخ» وأخرى «إمبراطورية» تقع تحت تأثير سلطة ثانية من السلطات الرومانية. حتى لو لم يكن هذا العرض وفياً تماماً، إذ إن لمجلس الشيوخ حقاً ببعض القرارات وهو يعمل باسم الشعب تماماً كالإمبراطور، فإنه يجدر بنا أن نتحاشى مخاطرة تؤدي إلى التفكير في فكرة اقتسام السلطة بدل مهمات متبادلة بين مجلس الشيوخ والإمبراطور ما يوحي بقاعدة شعبية غير ممكنة بالنسبة للسيادة الرومانية. فالاقتراح الذي افترضه ف. ميلار (F. Millar) يحفظ وحدة الأقاليم بوصفها «أقاليم عامة» مع التميز في إجراءات الانتخاب: فالأقاليم العامة «القريبة من الشيوخ» تناط إلى مُقرّب من القناصل يختاره مجلس الشيوخ، ويحمل لقباً نابعاً من التسمية الجمهورية، ومن جانب آخر تكون الأقاليم العامة «الإمبراطورية» تحت وصاية مسؤول يحمل ألقاباً مختلفة ويكون معيّناً بشكل مباشر من قِبل الإمبراطور. أما في الممارسة فإننا نسجل أنه لا تدخلات الأمير ولا تدخلات مجلس الأعيان كانت محدودة بالأقاليم المحددة. إلى ذلك فإن الوضعية «الإمبراطورية» أو «القريبة من القناصل»، لم تكن وضعية تكتسب مرة واحدة وإلى الأبد، بل ثمة تغيرات متعددة قد طرأت عليها مثل ما جرى لسردينيا ومقدونيا وسواها، ما يعزز صورة إدارة تتأقلم مع المناسبات ولا تقوم على مبادئ قانونية ثابتة. ثم إن الانتصارات التي حدثت بعد العام 27 ق.م. قد اكتسبت دون استثناء علامة إمبراطورية.

لعبت المعايير السياسية دوراً كبيراً. هذا ما يقوله سترابون. ووضعية الإقليم كانت خاضعة لدرجة هدوئه. فالأقاليم القريبة من القناصل كانت هادئة، مدينية تعودت على الحياة في الحواضر، وكانت لا تشكّل خطراً على أمن الإمبراطورية ولا تستوجب عادةً حضوراً دائماً للجيوش فيها. كانت مصر أولى الأقاليم الإمبراطورية وقد افتتحها الأمير بالذات. وقد أولي الحكم فيها إلى فارس برتبة والٍ. وهو شرف يعطي الأولية إلى النشاطات العسكرية. كما أن أرض اليهودية، ومنذ القرن السادس ميلادي كانت تحت سيطرة والٍ (مثلاً بيلاطس Pilate في أيام حكم تيباريوس)، وقد صار المنصب زمن كلوديوس (Claude) برتبة حاكم. ما يعني التوجه نحو مهمات مالية ونقدية. أما الأقاليم الإمبراطورية التي يتولاها الخيالة (اليهودية حتى عهد ڤاسبيان أقاليم الألب والشمال وتراقيا في القرن الأول وموريتانيا) وكلها أقاليم ذات نتوءات جبلية قليلة السكان وذات حضارة أقل شأناً من روما. أما الأقاليم الإمبراطورية التي يتواجد فيها رسول الإمبراطور الحاكم المنتدب من صف الحكام أو القناصل فكان يحمي من فرقة إلى ثلاث أو أربع فرق، ذلك أن موقفها، ومواردها، وعدم التساوي من حيث المنطقة في تطورها السياسي كان يستدعي اليقظة من جانب الإمبراطور الذي كان يخشى فيها على جزء من مصداقيته. أما مناطق المغول والجرمان (في ظل سيادة دوميتيانوس) وبريطانيا وإسبانيا ومناطق إيرلندا والبلقان وكبادوقيا وسوريا والبلدان العربية فكانت تعطي فكرة عن إعادة التقسيم، ما عدا مناطق شمال أفريقيا التي كانت مستقلة منذ عهد مبكر. لم تكن أفريقيا القريبة من القناصل التي تلحق بها شمال أفريقيا دون أن تكون مدمجة فيها كما يقول بلين القديم (Pline l'Ancien)، وآسيا، فلم تكن هذه كلها خالية من الجيوش، مايبرهن

على أن الوضعية الإدارية في الأقاليم الكبرى الغنية جداً والقوية كانت محكومة باتفاق لم يوضح إطلاقاً بين الإمبراطور وبين مجلس الشيوخ.

إن «العودة إلى الحرب» (M. Christol) في القرن الثالث قد أضرت بقوة بالتوازن الذي أقيم في الأقاليم بين الوجود المسلح وبين النشاطات السلمية. هزائم وأعمال تخريب والالتزام بالحفاظ على وحدة السلطة والأمرة، شرط الحفاظ على القوة الإمبراطورية، أمور فرضت إعادة توزيع المهام والأولويات. استدعى الأمر إيصال فرسان محنكين، يقومون بمهام عسكرية لتولي مسؤوليات عالية، كما استبعد الشيوخ عن أمرة الفرق العسكرية. كما ابتدأت مسيرة أخرى تقوم على آلية الفصل بين المهام العسكرية والمدنية، التي كانت سابقاً بيد حكام الأقاليم الإمبراطورية. وفي الوقت نفسه تم تقسيم الأقاليم، ما مهد للمرحلة اللاحقة. وإيطاليا التي كانت موضوع إصلاحات متعددة منذ عهد أدريانوس، راحت تخسر شيئاً فشيئاً من وضعيتها الخاصة لتتطور إلى نوع من موزاييك الدوائر الإقليمية اعتمدها ديوقليطس.

3 ـ **«الحاكمون والمحكومون»**: تأسست الممارسات الإدارية التي طورها أوغسطس على نهاية ما توصل إليه الاستثمار التحكمي لسكان الأقاليم. فقد كان لهؤلاء، أو أقله للنخبة منهم حق الالتجاء وتقديم العرائض. تستمد الحكومة الإقليمية مبرر وجودها لا من الانتصارات بل من ممارسة العدالة، وتأمين المواطنين الرومان ومن جباية العائدات المنتظمة (ضرائب، إنتاج، مناجم ومهن، الجزيات)، ومن إقامة النظام ومن التوافق بين الجماعات المستقلة. في المناطق التي تعسكر فيها الفرق كانت الأعمال العسكرية تضاف إلى الاهتمامات العادية وترتبط بالمكاتب

التي تقام في العاصمة حيث يديرها أصحاب الرتب المختلفة. يمارس الجيش مهمات الشرطة المختلفة، ومهمات المعاينة التقنية لحساب الإمبراطور أو للسلطة الإقليمية، كما يقوم بدور الأفراد حيث يسجل جدول الترقيات رتبهم ويسجل انتقالهم من إقليم إلى آخر والفرص والأذونات وعدم الالتحاق المؤقت بالخدمة. يؤمّن الحرس المكوّن من الفرسان المختارين تبعاً للنموذج الروماني حماية الحاكم أثناء إقامته في المدينة ـ العاصمة، وأثناء تنقلاته. يؤمّن الجنود أيضاً وحيث تستدعي الحاجة، حماية الموظفين الآخرين، لا سيما المفوضين. تناط إدارة المالية في الإقليم الملحق بالقناصل إلى شيخ شاب، المراقب المالي القريب من القنصل. في الأقاليم الإمبراطورية يقوم الفارس المدرب، مفوض الإمبراطور بتولي أمور النفقة. أما المفوضون الآخرون المختصون فكانوا يكلفون بالمداخيل المرتبطة بالمجال الإمبراطوري. وفي كل مكان يقوم العبيد والمعتقون بمساعدة الإداريين الإمبراطوريين في مهمات التحقق، والتسجيل والمراقبة من يوم لآخر.

تشغل النشاطات القضائية جزءاً هاماً من حياة الحاكم العامة: وقد ازدادت هذه بانتظام بحيث صرنا نشهد في النصوص توازياً بين الحاكم والقاضي. أدت الأعمال القضائية إلى خلق تنظيم أرضي جديد في الأقاليم. ولدينا من الإشارات ما يحملنا على التفكير، الآن، إن الأقاليم قد قسمت إلى نواحٍ قضائية حملت اسم diocèses في المشرق واسم çonventus في الغرب (R. Haensch). أما المؤرخ بلين القديم فلم يذكر هذه الأمور إلاّ في شبه جزيرة إيبيريا، وفي آسيا. ثمة وثائق أخرى توحي بأن مصر وجنوب تركيا قد عرفتا هذا التقسيم أيضاً. يجدر بنا أن نتقبل أصلاً إمبراطورياً لهذا التقسيم دون أن نتبنى إيقاعات تعميمها

على الأقاليم ذات الأبعاد الكبيرة. مهما كان مملاً ومدهشاً فإن القضاء لم يكن غالب الأحيان مثيراً للاهتمام في شهادات تحمل على إظهار المظاهر السياسية والعسكرية. إلى جانب التنظيم إلى دوائر تقسم إلى قصبات تستند إلى مواطنين من جماعات مسجلة على لوائح رسمية . كل «قاضٍ» وإلى جانب الولاة ـ الحكام، وحيث كانت الأقاليم ذات أبعاد متواضعة بحيث لا يتاح تقسيمها. كان يحظى بمساعدة قضائية استثنائية، ما يسهل التغطية السنوية لكافة الأراضي الإقليمية الواسعة عادة تبعاً لتقسيم يعتمد الأقاليم. نفهم من ذلك أن القضاء كان أُحادي الخط. بمعنى أن جولة الحاكم كانت، كما يقول سترابون، تقوم على إعادة تقديم ما يجب أن يكون وبشكل خاص المالية المحلية والتخفيف من الصراعات والمناوشات. كما كان ذلك وسيلة للتأكد من أن الكرم الإمبراطوري تجاه هذه الحاضرة أو تلك كان يلقى التكريم الذي يستحق. دون أن يكون عميلاً عند السلطة الرومانية يقوم بهذه الدعاية أو تلك، كان الحاكم إدارة ربط أساسية بين روما وسكان الإمبراطورية.

والحكام، سواء كانوا فرساناً أو من الأعيان (الشيوخ)، كانوا ممن يتدربون في أسرهم أو إلى جانب خدام الدولة أصحاب التجارب. ثمة فترة متابعة للتعليم تمتد من سنة واحدة إلى عدة سنوات وتبدأ من عمر العشرين أو الخامسة والعشرين لتوجه التدرب نحو العمل أو الممارسة التي تقوم على بعض المبادئ الأخلاقية، وهذا ما نستوحيه من مراسلة بلين الشاب بخصوص حكومة شمال اليونان. ثمة تراتبية تلحق السلك القضائي الروماني (مراقب مالي، قيِّم، أو قاضي حاكمية، قنصلية) وتهيِّئ هيكلية الوصول إلى منصب شيخ (عضو مجلس الشيوخ). تترافق التنشئة

العسكرية مع إدارة صناديق مختلفة، وممارسة مسؤوليات إدارية تفترض معرفة القانون وكيفية انتقال المعلومات والتوجيهات ومعنى الأمرة والسياسة. يمرّ الفرسان بمرحلة تحضير عسكرية طويلة، تتبعها مهام مالية غالب الأحيان لحساب المصالح الإمبراطورية (ضرائب، إدارة، مدراء خاصة وعامة) قبل أن يبلغ الإدارات الكبرى (في روما، أو في الحكومة في مصر) التي تتبع الإمبراطور والثقة التي يوليها إلى خدام الإمبراطورية هذا إذا استطاع مقاومة الانتقاء واستنزاف الوقت. وحتى يصل الفارس إلى رتبة حاكم إقليم مهم كان عليه أن يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره، وحتى يحكم إقليماً إمبراطورياً يجب أن يكون قد تجاوز الأربعين أو الخامسة والأربعين، وليصل إلى رتبة كبير القناصلة في أفريقيا أو آسيا عليه أن يكون في الخمسين على الأقل. إلى جانب قواعد الأقدمية، ووجود فرص شغور الوظيفة، علينا أن نضيف الصفات الشخصية والاعتراف المتبادل كل مرة تكون فيها التعيينات الهامة موضع البحث. وإذا ما راقبنا ردود فعل بلين الشاب في بيتينيا (شمال شرق آسيا الصغرى)، نجد أنه لم يكن لمعرفة الناس المحليين ولتقاليدهم وزن يذكر في التعيينات. يكفي غالب الأحيان أن لا تكون الأمور قد جرت عكس أماني الإمبراطور. فالعقوبة قد تنزل بقرار تتخذه القنصلية الإقليمية. يجتمع المجلس المؤلف من أعيان تنتدبهم حاضرتهم سنوياً وذلك من أجل الاحتفال بالأعياد الإمبراطورية. وكانت هذه مناسبة لتقديم التظلمات تجاه القرارات الرومانية وللتصويت على التشريعات، ولتقديم الشكر، أو خلافاً لذلك، من أجل ذم الحاكم، وهذا ما كان يحصل أكثر ممّا نتصور، إذا ما قرأنا تاسيتوس أو ديون كاسيوس.

لم تكن الإمبراطورية الرومانية بيروقراطية دولية ولا إدارة ثانوية تدفعها رياح عدم الكفاءة أو الولع بالفنون أو الفساد، بل هي صارت حكومة العالم. لا تحتاج سيطرة روما إلى أي تبرير. فهي قامت ببطء على إدارة قضائية إمبراطورية تهدف إلى إقامة قواعد مقبولة في العلاقات بين الدولة والجماعات، بين السلطة والمواطنين، بين الأفراد أنفسهم. والإمبراطورية لم تكن مع ذلك بناءً قضائياً حديثاً، أساساً لوحدة تأسست بهذا الشكل ويتمّ الشعور بها بهذا الشكل أيضاً. يمثّل الإمبراطور وكذلك القضاة والحكام الدولة ويؤمّنون وجودها بشكل من الأشكال. أما الذين في الخارج، أو على الهامش فهم يدركون الدولة كواقع غريب، بطريقة عينية ومعاشة. أما «دستور أنطونين» فقد جعل المواطنية الرومانية أمراً عالمياً عام 212م وكذلك القيم الإنسانية (في الثقافة والتربية) الرومانية. لم يُدخل هذا الدستور أي عامل توحيد جديد. فضمانة الوصاية الإلهية والإحالة إلى المدينة أو الحاضرة بوصفها إطار الحياة المتمدنة كانت بمثابة أداة وصل.

الفصل الثالث

ثمانون مليون ساكن

لم تكن الإمبراطورية الرومانية رغم اتساعها (حوالى 10 مليون كلم²، منها حوالى ثلاثة ملايين تشكّل مساحة البحر المتوسط) مأهولة بما يوازي دولة أوروبية كبيرة في أيامنا. ولا يستند الرقم - ثمانون مليون نسمة وهو عدد السكان الإجمالي إلى أي أرشيف، بالتالي فهو لا يشكّل إلا رقما محتملاً أو تقريبياً، يحمل الكثر من التفاؤل للبعض وهو أدنى من الواقع بالنسبة لآخرين. ثم إن الأحوال الاقتصادية المناسبة في وقت طويل نسبياً ثم غير الثابتة بعد ماركوس أوريليوس تقدم لنا سلم تقييم متمايزاً ومتطوراً. فتنوع المساحات والظروف الإقليمية قد عزز وجوب الحذر.

عاش معظم سكان الإمبراطورية في إطار الحاضرة. في الشرق شكّلت المدينة اليونانية طابع النظام الأرضي؛ وهي تابعت تاريخها في ظل الأباطرة. في الغرب شكّلت التجمعات الجمهورية نموذجاً بلدياً متعدد الأشكال يرتبط بتنوع وضعية الجماعات القانوني. أما النخب المحلية الإقليمية والرومانية، التي تقوم على تراتبية معيّنة، فقد شكّلت البناء الاجتماعي وأمّنت المسالك بين

طوابق الهرم. وفي كل مكان كانت السياسة ـ المصالح المشتركة، والحياة المدينية ـ تميّز العلاقات بين الأعيان وبين المقيمين في الحاضرة. نلاحظ أن الإمبراطورية الرومانية قد آثرت النظام الأرستقراطي على حساب نظام ديمقراطي والذي علينا بكل الأحوال أن لا نخلط بينه وبين الديموقراطية الحديثة.

I ـ السكان والمجتمعات

تشكّل إمبراطورية الشعوب الأساس الذي بنى عليه المنتصرون سيطرتهم. يبدو هذا البُعد ثانوياً خلف ما قامت به الإدارة الرومانية من إعادة بناء ومن تقطيعات. إن ذلك ليس إلا وهماً. فلا وجود لوثائق إحصائية معروفة تعدد سكان الإمبراطورية بمجملهم أو بحسب المناطق. وخارج النقوش الجنائزية، و«لوحات الباقين على قيد الحياة» والتي تعود إلى (القاضي الروماني) أُلبيانوس (Ulpien)، وبعض أوراق البَرْدِيّ التي تُستخدم أساساً للتقديرات حول الوفيات وسجلات البقاء على قيد الحياة، فإن الإحصاءات لا تبدو إلا بصورة محدودة وهي تثير مسائل تتعلق بتأويلها. ففي الأقاليم، وإذا أخذنا مصر مثالاً، نجد وحين تسمح الظروف أن الإدارة الإمبراطورية قد اعتمدت كل أربع عشرة سنة تنظيم إحصاء رسمي بالسكان. وأكثر من ذلك لا نعرف شيئاً. فالمعطيات الكمية نادراً ما تفصح عما فيها لذلك علينا أن نعمد إلى اختراع ديموغرافية قديمة قدْر الإمكان.

1 ـ موزاييك من الشعوب: تُظهر قراءة سترابون وبلين الأكبر (Pline l'Ancien) أن الإتنيات التي تداخلت في الإمبراطورية كانت بالمئات، وكانت تقسم الأراضي إلى وحدات صغيرة مستقلة ذات حدود غير واضحة. إن إمبراطورية روما قد امتصت شيئاً

فشيئاً مساحات ثقافية إقليمية مختلفة لم تكن الهللينية إلا العنصر الواضح فيها، لأنها كانت الأكثر انتشاراً. تبدأ التوصيفات الجغرافية في العالم المسكون (راجع الخارطة في بداية الكتاب) غالب الأحيان بشبه الجزيرة الإسبانية لتنتهي بأفريقيا الشمالية متخذة دورة عقارب الساعة. بحسب هذه الصورة، وإذا ما تركنا اليونان وإيطاليا نجد بشكل واضح مساحة شبه جزيرة إيبيريا، والمنطقة السلتية بالتماس مع الشعوب الجرمانية، منطقة الدانوب والبلقان والأناضول الهلليني حيث تتمازج اللغات المختلفة، دون أن ننسى حضور الإيرانيين في بلاد فارس والمنطقة الساميّة (سوريا، اليهودية والعرب)، ومجال الأرامية الذي يتميّز عن العبرية، مصر التي تقع في آسيا بالنسبة للقدماء، أفريقيا الشمالية المسكونة من قِبل الليبيين ـ البربر، مثل المور Maures وبربر شمال أفريقيا، وقرطاجة التي توسعت وصولاً إلى المحيط. والمستعمرة الفينيقية القديمة وقد صارت دولة هللينية قد استُخدمت أداةَ وصل، إذ أصبح تجذرها في المنطقة أكثر عمقاً مما كان يُظن. وبمجيء أوغسطس لم يعد بالإمكان أن نماهي بين خريطة العالم وبين المعايير الاقتصادية والثقافية أو الإنسانية. وعلى الأطراف تعايشت ثقافات مختلفة جاهلة فيما بينها خطوط التماس السياسي. أما الرومان فكانوا يعيشون فيما بينهم مثال إنسانية وجدوا جذورها في مصادر متعددة. كانوا على وعي بأن اليونان وكذلك السلتيين les Celtes والبربر وأهل إسبانيا ومصر أو الشعوب الساميّة مهما كانت بربرية في نظرهم، فهي تتقاسم وإياهم إرثاً جليلاً من التقاليد التي يتوجب احترامها، بما لا يتناقض مع التأكيد على التفوق الروماني الذي يشعر به المنتصر حتى لو تضمن احتقاراً للغير.

ورثت الجماعات المختلفة التي تجمعت تحت راية روما، أنماط تنظيم مختلفة؛ فالملكية الهللينية، أو النظام الأرستقراطي الذي قام في قرطاجة المنتصرة لم يستطع الاستمرار. والملكيات الصغرى التي صارت من زبائن روما، أو من المتحالفين معها، والعشائر المحلية، أو الشعوب التي تديرها أرستقراطية من المحاربين، والقبائل المتحدة إتنياً، كل هذه كان عليها أن تحافظ على استقلاليتها أو أن تجد بعض الحرية بعد سقوط الملوك أو الأسياد الذين كانوا يخضعون لهم. فالحواضر اليونانية أو مناطق قرطاجة قد دشنت مرحلة جديدة من تاريخها في ظل القوة المنتصرة. فالإمبراطور وفي ما يشبه استمرارية سياسة القيصر، قد شجع تنظيماً محلياً يقوم على الحاضرة ويختصر الفئات التي تولدت في ظل المناسبات طيلة انتصارات الجمهورية. أفضل الأمثلة على ذلك هو إقامة حواضر استعمارية في أراضي الأقاليم وهي تقوم على محاربين قدامى وُهبت لهم الأراضي. أما مواقع الشعوب أو الجماعات أثناء الحروب فتتقرر باعترافهم أو باختفائهم أو بذوبانهم أو بانتسابهم إلى آخرين في الحاضرة. في القطاعات التي تُعتبر عصيّة بسبب المُناخ أو بسبب النتوءات أو بسبب بساطة الطباع، كانت الشعوب الجبلية والبعيدة عن عادات الشعوب المتوسطية موضوع مراقبة دقيقة. أما الصعوبات فكانت أكثر الأحيان ناجمة عن جماعات غير متمدنة أو واصلة حديثاً. توالت الهجرات في ظل الإمبراطورية على جوانب المناطق الهادئة، سواء في بريطانيا أو ألمانيا أو على طول نهر الدانوب وعلى مشارف الصحارى الشرقية المصرية والإفريقية. وقد ظلت إفريقيا الشمالية أرض غزوات أثناء الأزمات العسكرية والسياسية في القرن الثالث.

يستخدم «القاموس الروماني» كلمات أمة (natio)، أو الناس، في إشارة منه إلى الشعوب الغريبة عن التنظيم في الحاضرة. فالعبارة الأولى أو الثانية تشير إلى فكرة أولية العلاقات العائلية والقرابة على أشكال الارتباط الاجتماعي الأخرى: فعبارة أمة تعني المجموعة التي يكون الانتماء إليها بالولادة، كما تشير أيضاً وفي الوقت نفسه إلى مكان الولادة: أما كلمة ناس، gens، فيجب تقريبها من اليونانية genos، ولها أبعاد أخرى، اجتماعية، وعلى صلة بالانتساب المعترف به بالعلاقة مع جو مشترك حقيقي أو وهمي. تؤكد القرابة على رابط يتسم بالاستمرارية. ينطوي النظام العائلي واقعاً على ارتباطات بالزواج الخارجي، وهي علاقات تتبع النظام الأمومي أو الأبوي؛ تتبع علاقة النسب التحدر من الأب، وقرابة الرحم، القرابة الثنائية. إن التحدر من الأم أو الانتقال عبر المجموعة القرابية للأم قد أتاح بناء علاقات نسب متعددة يمكن أن تتجاوز إطار العائلات البيولوجية. يذكّرنا التوثيق الذي وصلنا عن حقبة الإمبراطورية الرومانية بثبات أشكال البناء الاجتماعي هذه. ثمة قرابات رحم تشير إلى عائلات ممتدة ذكرتها الوثائق، خاصة في شبه جزيرة إيبيريا أو في البلدان السلتية. تمنعنا الحقائق الاجتماعية والأرضية المعقدة في إقليم روماني الإبقاء على وجود قرابة متجانسة عبر التحدر أو أيضاً عبر الإقامة. وقرابة الرحم التي تشير إليها النقوش ربما كانت إشارة إلى القرابة المنتشرة في سياق تنظيم لا مدني ولا أخلاقي. صحيح أن هذه القرابات كانت ثنائية، من جهة الأب ومن جهة الأم، إلا أنها كانت تعطي التمايز دون شكل للقرابة الأبوية ما يجعل علاقات القرابة التي تقوم على «الأنا» حقيقة مقبولة. إن الإضاءة على عقود حسن الوفادة التي ترتبط بها هذه المجموعات العائلية الممتدة وتجددها كل جيل إنما تصرُّ على الاستخدام الاجتماعي للقرابات، عنصر

سلطة وامتياز. إن اللجوء إلى قرابات الرحم أو الشرك إنما يدخل في الاستراتيجيات التي تتواءم مع التطور السياسي، سواء كان محرَّكاً بالعدالة أو الحمايات، بل بالشعائر.

الحَراكية، التهجين، التجدد وما يتأتى من اندماج الشعوب التي دخلت العالم الروماني، كل ذلك أوجد شروط التحول البطيء عند الشعوب التي تتعلق بهويتها والحرة بعدم التنصل منها. تعكس الإحالة إلى القرابة القوة التكوينية لبنية انتماء إلى الجماعة التي تؤمن التكافل، والتي لم يكن اختفاؤها مبرمجاً بالانتقال إلى أشكال تنظيم أو علاقات أخرى. كانت الجماعات الإتنية بذاتها خليطاً. بالتالي لا مكان للتفكير في أن الإمبراطورية الرومانية قد شكلت خليطاً من شعوب متباينة. بل إنه لا يمكننا بسهولة أن نكوِّن فكرة تقريبية عن الحقائق الديموغرافية.

2 ـ **التعدد**: الحساب وأخطاء الحساب. ثمة نزعتان متعارضتان: النزعة التي تذهب إلى حد أدنى والتي تذهب إلى حد أقصى. والحجج تقوم على براهين غير مباشرة انطلاقاً من إشارات هزيلة. فقد قدَّر س. جوليان (C. Jullian) تعداد سكان منطقة غاليه «Gaule» بعشرين مليون نسمة، أي ما يوازي سكان فرنسا في القرن السابع عشر. بردة فعل مبالغ بها نصل إلى عدد يوازي ستة إلى ثمانية ملايين. بل قد يصل بنا الإغراء أحياناً إلى تقدير العدد بعشرة إلى اثني عشر مليوناً. ترتبط الآراء بالصورة التي شكّلها كلٌّ منهم عن الموارد، والنظام الغذائي، وطرق التخزين، وأنظمة الصحة والطب، والرخاء الإقليمي وعوامله، ومعدلات تجديد الأجيال وخصوبة النساء، ونسبة الوفيات عند الأطفال، ومعدل الأعمار إلخ.

يقتضي الحذر أن لا نميّز أي نموذج سكاني يمكن تطبيقه تالياً على إمبراطورية روما. فلا دولة في طريق النمو، ولا أي مجتمع شبيه بمملكة فرنسا في ظل لويس الرابع عشر (Louis XIV)، يشبهان العالم الروماني الذي يخضع لأنظمة خاصة توحي بها المؤسسات الغذائية في الأقاليم. يجدر بنا أن نتحاشى أفخاخ الكليشيهات الجذابة التي يقدمها الأخلاقيون الذين يسودون بسرعة واقعاً يتحملونه بصعوبة. بكل الأحوال لم يكن الرخاء الظاهر والانطلاقة المدينية في القرنين الأولين من عمر الإمبراطورية ليؤدي إلى استنتاج يقول بتعميم النمو السكاني وأن تفرض عن طريق التعاكس نتيجة تناقص سكاني يعود لعوامل وبائية قوية ترافقت مع الحروب.

أن نحدد معدل العمر انطلاقاً من شواهد القبور أو أن نوازن النتيجة عبر مفهوم الأمل بحياة يكون فيها 50% من جيل زائد واحد قد انقطعوا عن الحياة، فإن احتساب معدل العمر بين 22 سنة و30 سنة كمُدّة متوسطة عادة ليس ملائماً. إن قائمة الباقين على قيد الحياة تسمح بمقاربة أخرى. إن الأمل بالحياة يجب أن يعدل تبعاً للعمر الذي بلغه الأفراد، ذلك يعني أن الرجل لم يكن مقدراً له أن يتجاوز 20,4 سنة والمرأة 22,5 سنة ولكن وبقدْر ما نتطلع بعناء فإن المنظورات تتعدل بشكل محسوس. ففي الثلاثين يبقى للرجل قرابة 23,9 سنة وللمرأة قرابة 26,1 سنة أمامهما. وبقدر ما يتمّ التقدم بالعمر بقدْر ما تكون حظوظ الشيخوخة أكبر. فنسبة 6% من طبقة عمرية تتجاوز في نهاية الامر 60 سنة. هذا، بغض النظر عن نسبة وفيات الأطفال المرتفعة دون شك، نسجل أيضاً أنه بين 40 و50 سنة ثمة حاجز يصعب اجتيازه. أخيراً رغم قلب الاتجاه في النسبة بين الرجال والنساء، وهي ليست لصالح

النساء أول الأمر بسبب الوفيات أثناء الولادة، وهي لصالحهن في النهاية، فإن العكس ليس استثنائياً: فمن الأفراد الذين يبلغون الخمسين تصل ثلاث نساء إلى سن التسعين مقابل رجل واحد يبلغ هذا العمر. يدخل الوضع الاجتماعي بعض المتغيرات. ويظهر أن أعضاء مجلس الشيوخ وبغض النظر عن طول فترة حياة نظرية يعود إلى ظروف حياتهم المتقدمة لم يكونوا بعيدين عن الموت المبكر. وربما كانت أتعاب المهنة والحياة المدينية بداية تفسير لما يعانونه. نظراً لكلفتهم العالية فإن العبيد المتابعين جيداً والمراقبين قد تمتعوا بأمل بحياة أطول من المواطنين الفقراء.

كشفت مدينة روما عن عدم ثبات الشروط الفردية أكثر من أي مكان آخر، ثم إن الحياة المدينية قد أتاحت دون شك حظ بقاء على قيد الحياة أفضل مما نجده في الريف. أشار الشاعر هوراس (Horace) إلى الحمى «التيفوس» التي تأتي في الخريف، ويضاف إليها الحمى التي تأتي نهاية الصيف. أما الشتاء فهو الفصل الأكثر صحةً، هكذا ترسم السنة معالم نِسب الوفاة. الكوليرا، الديزنتاريا، مرض الجمرة، التيتانوس، الجرب، إلى جانب الطاعون، كلها أمراض تبيد الشعوب بشكل غير منتظم كما حدث عام 165، أو عام 189. ثم إن التوافق تام على القول إن الطب كان أقل بدائية مما يصار للتأكيد عليه غالباً، وهذا ما تظهره التنقيبات التي أظهرت وجود أواني ووصفات لمعالجة أمراض العين، ووجود أطباء عسكريين، وهذا من خصوصيات روما وأعمال جالينوس (Galien) (129 أو 130 ـ 200) الذي علّم هذه المهنة. كانت الجراحة من الحِرف التي تمارس، والمدن الإقليمية كانت تحضن الأطباء. وكان الأباطرة والأرستقراطيون يلجأون إلى المعاينة عند من يمارسون التطبيب. أما الغذاء فلم يكن ليقتصر على الحبوب حتى بالنسبة للأقل تجهيزاً.

وإذا كان اللحم وجبة يوم العيد بالنسبة للعدد الأكبر، فاللحم لم يكن نادراً كما كان يُظن. تشكّل الفاكهة والثمار والمنتوجات البحرية مكمّلاً غذائياً تبعاً للموارد المحلية. وكانت الجيوش تتمتع بامتياز في هذا المضمار. تشهد التنقيبات في أماكن المعسكرات على الاختلاف في المنتوجات المستهلكة.

إن الثوابت التي يجب أخذها بالحسبان عديدة ومتنوعة تبعاً للأماكن والعصور حتى يصار إلى التمييز بين البنى والحركات الديموغرافية أياً تكن. فلا وجود لقاعدة حسابية مرضية. توجهنا التخمينات نحو رقم هو بين 60 و100 مليون نسمة في القرن الثاني. بهذا المعنى يكون الرقم 80 مليون نسمة رقماً تفرضه المعطيات الرقمية المعروفة، من عدد الحواضر ومن ميحط ممكن جداً، أما مدينة روما فهي تشكّل حالة خاصة، وإذا قدّر لأفريقيا أن تشهد توسعاً قوياً في القرنين الأولين، فإن ذلك لا ينطبق على اليونان التي عرفت ركوداً قبل الإمبراطورية وقد استمر بعدها. أما بلاد الغال وشبه جزيرة إيبيريا فقد أعطت الانطباع بوجود أحوال اقتصادية مناسبة، هذا إذا صدقنا التنقيبات.

3 ـ **التصنيفات الاجتماعية**: تُظهر عشرات الآلاف من الشواهد في المقابر التي وجدت في كل الإمبراطورية، وإلى جانب كتابات شيشرون (Cicéron) والقضاة، إن الأسرة النووية هي الأسرة الأكثر انتشاراً في العصر الإمبراطوري. يشكّل الزواج الشرعي أساس الخلية العائلية، وأساس السلطة الأبوية على الأولاد الذين لا يتحررون منه إلا بالتحرر أو بوفاة الأب. إن الحضور العام لمواطنين رومان في كل الأراضي الخاضعة لرقابة روما، وانتشار القانون اللاتيني في الغرب والقانون اليوناني في المشرق، كل ذلك يعزز النظام الأُسري حول الأهل والأولاد، إلا أن

اليهود لم يتخلوا عن تعدد الزوجات. فغائية الاتحادات، ما عدا الاستنسال كانت نقل الإرث بطريقة منتظمة. فالعائلة التي تحدد بهذا الشكل إنما تنتظم في نظام من القرابة الثنائية أو قرابة الرحم. بالرغم من التحسينات التي أدخلها أوغسطس، فإن النساء والبنات قد بقين أدنى من الأزواج والأبناء، لا على مستوى المهام في خدمة الجماعة، بل فيما يخص التعاقب. وحدهن الأرامل كن يتمتعن بحرية التوصية إذ يشكّلن في هذه الحالة الرابط الأساسي بين الأجيال في عملية انتقال الملكيات التي لابد منها. وكان بإمكان البنات كما الأبناء الطعن في وصية من جانب الأب أو من جانب الأم إذا تبين أنها وحيدة. كذلك لا تفيدنا الصفات ولا أشكال التفضيل العاطفية على شواهد القبور شيئاً عن تطور السلطة الأبوية، كما أنه لا شيء يعزز فكرة التحول في العلاقات الأسرية والعلاقات العاطفية منذ القرن الأول، فالثقة والواجب يسيطران دائماً على التمثلات والممارسة السائدة في العلاقات غير الشرعية تقدم عنصر شرح إضافي. على مستوى فردي وبحسب السياق الاجتماعي، مارست النساء خارج المحيط الإمبراطوري والمشيخي تأثيراً يفوق ما تسمح به الظروف.

تشير العائلة في مقام أول لا إلى الخلية العائلية، بل إلى الخدمة المنزلية. إن انطلاقة العبودية الممارسة في العصور القديمة كانت نتيجة حروب الغزو التي حدثت مع نهاية الجمهورية. والظاهرة هذه كانت منتشرة أيضاً في العالم اليوناني خاصة في إيطاليا. أما في بلاد الغال، وفي أفريقيا وآسيا الوسطى فإن العبيد كانوا فيما يظهر أقل عدداً، هذا لا يمنع القطاعات الإقليمية على الأطراف من التعاطي مع العبودية لتكون هذه خزاناً يعد للانتقال إلى المركز. يمكن للعبد الروماني أن يعتق في ظروف معيّنة تكون

مترافقة ضرورة مع شروط الحصول على الحرية. يصبح العبد الذي يعتق وريث الشروط القانونية الخاصة بسيده، وهو يظل في عهدته، إلا إذا أعلن السيد أمراً مخالفاً. أما الحرية الكاملة والبراءة فلم تكن متاحة إلا للأولاد. إن التمايز في الحرية الشخصية كان أمراً يفصل مجمل الجسم الاجتماعي. أما الوضعية السياسية فهي تأتي في الدرجة الثانية: كان الحصول على حق المواطنية الرومانية امتيازاً في القرن الأول يتوق إليه العدد الأكبر من السكان. يُعتبر مستوى الثروة والضريبة الإقطاعية التي تتجسد في الملكيات العقارية والثروات العقارية المدينية الأساس الاجتماعي لتصنيف المواطنين الأحرار بالضرورة. يضاف إلى ذلك ميزات الكرامة والأخلاقية التي قد تكون نقيض تراتبية الثروات. ومنذ عهد أوغسطس صارت التصنيفات أمراً تشترك فيه كل المقاطعات وكل الجماعات في الإمبراطورية: على قمة هذا الهرم التراتبي نجد الشيوخ وأفراد أسرهم، وهم يشكّلون نظام المشيخية القابل للتوريث، يأتي بعدهم الفرسان أو أعضاء النظام الفروسي الذين يمتازون بشهادات شخصية تُعطى لهم من الأباطرة (إلا أن ابن الفارس كان يتمتع أيضاً بحظ في المستقبل)، ثمة مسافة فاصلة وعلى جانب من الأهمية تفصل بين العوام، لا سيما عامة روما التي تعتبر صاحبة امتياز خاص. كما كانت الفروق بين العوام قوية جداً. ولم تكن العامة الفقيرة محميّة بشكل خاص أكثر من الأخرى ولا مالكة للوائح تعطيها حقوقاً معيّنة. والامتيازات التي تخصصها الدولة من توزيع غذاء أو معايدات كانت توجه إلى عامة مجتمع الإمبراطورية. وكان ذلك عمل كرامة يتميّز به المتحدرون المنتصرون، فكان الحديث يجري عن «القمح السياسي»، أما الغرباء أو الرُّحَّل فكانت النظرة إليهم واقعاً وقانوناً، أدنى من النظرة إلى الآخرين مهما كانت ثروتهم أو ثقافتهم.

لا امتيازَ اجتماعي دون ملكية للأرض. ودون إرث وديمومة لا وجود للنبالة. فقيمة الأجداد، والمجد الذي يعطى للأفعال التي تشع على الجماعة بأكملها كانت تغذي امتياز تحدر معيّن، أو قرابة معيّنة. ففي خزائن المساكن النبيلة نجد الصور واللوحات والشجرات العائلية المزينة بالشرائط المزخرفة، إنها إشارة على حفظ ذاكرة الأسرة. كان الالتزام بخدمة الحاضرة أمراً أساسياً. على الثروة أن تساعد المشايخ للحفاظ على وضعهم الاجتماعي وتخصيص أنفسهم لأعمال مجلس الأعيان، كما تساعد القادة العسكريين والذين يتسلمون وظائف إقليمية أو في روما القيام بأعمالهم. لم يكن جميع حاملي الألقاب المشيخية (600 شيخ بحد أقصى وما بين 2000 إلى 3000 عضو) من النبلاء: فالقنصلية تلعب دوراً حاسماً في تحديد معنى النبالة، وثمة 10% من المشايخ يملكون أو يحصلون بأمر إمبراطوري شرف تسجيلهم على الألبوم مع صفة الشرف، بوصفهم شريفاً رومانياً. كان الانتماء إلى التنظيم الشرفي محاطاً بعلاقات مميزة: الحصول على ما يوازي 250 هكتاراً من الأراضي، صدرية أو قماشة من الحرير العريض فوق الجلباب، حذاء أحمر مع بكلة مذهبة بشكل قمر، لقب يشير إلى الانحياز إلى الاندماج في المجتمع الإمبراطوري، وقد أعطي أول الأمر للرجال ثم شمل مع ماركوس أوريليوس الزوجة والأولاد. وقد ضاعف سكان الأقاليم بشكل منتظم من مشاركتهم في التجنيد إلى جانب هذه النخب؛ فبعد الإسبان وشعب الناربون «les Narbonnais» في القرن الأول، شكّل الأفارقة والمشارقة أساس الداخلين في القرن الثاني. وقد أدى التطور أن يجعل طراخان البيت الروماني بيتاً إلزامياً وأن يملك المشايخ ثلث ثرواتهم في إيطاليا. أما الاستراتيجيات العائلية التي تقوم على التزاوج والتبني فقد جعلت عمر البيوت يتقدم المشهد.

كذلك شكّل الفرسان الرومان تنظيماً أكثر تغايراً من التنظيم المشيخي، يعود ذلك لأصل جغرافي (20,000 إلى 30,000 شخصٍ) يقوم على الامتياز والثروة والتأثير. وكانوا يملكون العقارات. قوة نخبة من الخيالة لا تعود أصولها بالضرورة إلى روما، ويمكن اعتبارها موازية للمشايخ. كان يشار إلى الانتماء إلى نظام الخيالة برخصة حمل شارة معيّنة أو برباط ضيق من الحرير، أو بثوب أرجواني مزيّن بشرائط متعددة من الحرير، يلبس أثناء الاحتفالات الكبرى (عرض 15 تموز لمن هم تحت سن الخامسة والثلاثين - الجنائز الإمبراطورية) وشرف الحصول على الحمل الذهبي، وما يعني اكتساب الحق في الجلوس على مقاعد الصفوف الأمامية الأربعة عشر بعد المشايخ على المسرح. في القرن الثاني كانت ألقاب «المميّز» و«صاحب الولاية» «والكلي الرفعة، أو النيافة» ألقاباً تشير إلى استحقاقات الولاة والمديرين. ومن صف هؤلاء كان يتمّ الارتقاء إلى المشيخة، إما بشكل شخصي أو بوساطة الأبناء الذين يتسلمون الصدرية التي تشير إلى انتسابهم لصف المشيخة منذ عهد كاليغولا. كان القبول المباشر بين المراقبين الماليين والمحامين والمفوضين وسيلة أخرى يستخدمها الأباطرة لمواجهة صعوبات الأسر المشيخية للبقاء إلى الأبد. ويبدو أن بعض المتحدرين من العبيد والمعتقين قد استطاعوا أحياناً الارتقاء مباشرة إلى مصاف تنظيم أعلى. لا يمكننا اعتبار هؤلاء إلا بمثابة استثناء: فمن الناحية العادية كان لا بد من انتظار عدة أجيال حتى تستطيع عائلات المعتقين الارتقاء، إنه الوقت اللازم حتى يتمّ إذا أمكن نسيان عاهة العبودية الأصيلة. إن وصول المعتقين إلى درجة من الغنى بالتجارة والمبادلات يوحي أن الربح السريع لم يكن مداناً إلا لميزته التي تقع بالصدفة، ولما تسببه الثروة من آثار جانبية. لا يمكن كره الاهتمام بالمصالح النافعة اجتماعياً،

شرط اعتبارها نشاطاً طارئاً في خدمة الطموحات النبيلة والحفاظ على الموقع.

إن التمايز غير الرسمي بين رومان روما وإيطاليا، وسكان الأقاليم قد ازداد حدة في ظل الإمبراطورية والأباطرة، لاعباً دوراً يختلف باختلاف المناسبات والتقدير الذي يحمله الأباطرة لهذه أو لتلك من العائلات المهمة. فقد اعتبر الشاعر مارسيال (Martial) أن مضاربة سكان الأقاليم كانت أحياناً بمثابة المس بحقوق لا تتغير بمرور الزمن. والحصول على المعارف أو على ثقافات ذات قيمة لا يصحح كلياً النواقص المتأتية عن وضع اجتماعي متدنٍ ومعلن. باستطاعة المهندسين، والفنانين والرسامين والفلاسفة والشعراء والبلغاء إبراز مهاراتهم حتى في البلاط: أما طريق السلطة فلم تكن مفتوحة لهم بأكثر من ذلك. سجّل القانون الاجتماعي الهوة بين سكان المدن والأرياف، فعالم الريف الذي يشكّل ما بين 70 إلى 80% من السكان كان يُعتبر فظاً وبربرياً، جاهلاً ولا متوقعاً. أما المدينة فكانت إطار الحياة المتمدنة والتربية وحلاوة العيش. لم تكن المسألة إلا مسألة مكان. وقد ذكّرنا بلين الشاب بأن الريف كان مكان إقامة من أجل الراحة واللهو، لمن استطاع أن يتأقلم مع وسائل الحياة الريفية. وأنماط حجاج الأرستقراطية كانت تعارض أشكال النشاط، لا الأوساط التي تنشأ فيها. ثم إن عمل الفلاح الصعب كان يُعتبر عملاً يناسب العبد. والتكامل بين المدينة والريف كان من الطبيعي أن يتناسب ونمط حياة الملاكين الأرضيين الكبار. فلم يكن لمجتمع الإمبراطورية الرومانية من نظرة منظمة حول السكان الفاعلين والفئات الاجتماعية المهنية، إذ لا تواصل فعلياً بين الوظائف والنشاطات العينية المسجلة ضمن سلسلة منظمة من توزيع المهام.

تتمتع غالبية السكان بأفق محدود إلا أنهم كانوا منغمسين وسط شبكة محبوكة من علاقات مفتتة غير مقننة بشكل صارم. فالحي، والجيرة والمدارس والمؤسسات ذات الطابع الديني أو الأخلاقي كانت تنسج حبكة التكافل، والمنافسات والمزايدات العنيفة التي يخشاها الأقوياء. كان البحث عن الحمايات وعن الرعايات سلاحاً فاعلاً ضد العزلة. بل إن الحامي كان يزداد مجداً وامتيازاً من توافر أعداد الزبائن، ثم إن هذه العلاقات المرجوة والتي يقدرها كلٌ من الطرفين كانت علامة ثقافية متجذرة بعمق في التقليد الاجتماعي عند الرومان. لا يمكننا الحديث عن نظام يخضع لرقابة السلطة عنده ما يخشاه أكثر مما يتأمله من رب عمل شعبي جداً. فهذا لا يقوم بعمل ينم عن الإحسان أو عن الملاءمة، فهو يظهر رعايته وكرمه تجاه من يعرف استحقاقها. فلا إلزام شرعياً يحتم اختيار رب العمل. ومفهوم «الإقطاع» المستعار من قاموس العقد كان في صلب هذه الروابط غير القابلة للتوريث بين الزبائن. والتحية الصباحية التي تتوافق مع الهبة [التي كان السادة الرومان يقدمونها لزبائنهم وأنصارهم] كانت الشعيرة التي تبرز وضعية الحامي. وكل الزبائن لم يكونوا يضحون بها كل يوم، علماً أن لا شيء يمنع الاستعانة برؤساء متعددين. وقد أسهمت الإمبراطورية في تنظيم هذه الممارسات بشكل أفضل وجعلها شكلية. حتى لو لم يقم الإمبراطور بمصادرة ذلك لحسابه، رغم ما كتب عن ذلك، فهو قد تصرف بشكل يظهر معه وكأنه الضامن الأعلى. وكان مثله نموذجاً للعلاقات الموجودة على كل مستويات الحياة الاجتماعية. تبنت الهيئات المهنية والمدرسية، والحواضر والقرى نمط العلاقة هذا حيث لم تكن الحماية بالعدالة إلا أحد مبررات وجوده.

لا يعني وجود نظام سياسي واجتماعي مبني بشكل جيد تطبيق نظام رقابة خانق. بل يجب اعتبار الإمبراطورية بمثابة حقبة تناسب التبادلات وتناسب التوسع.

II ـ إمبراطورية ـ عالم

من منظور حديث يقدم البناء السياسي الذي هو بحجم وقامة الإمبراطورية الرومانية صورة سوق ضخم ومنظم. نستند أحياناً إلى خطاب «على شرف روما» الذي وضعه فصيح يوناني من آسيا القرن الثاني، أوليوس أرستيدوس (Aelius Aristide)، ليقول فيه بإصرار إن العاصمة هي المكان الذي يشكّل المركز، والمكان الذي ينعكس فيه كل ما يجري في الأرض المسكونة. ثم إن المدينة كانت الضامن للازدهار في مجمل الأراضي. تمثّل هذه النظرة تفكيراً عاماً يتناول مشروعية المصطلحات الحديثة مثل «اقتصاد السوق»، «الرأسمالية» و«الاقتصاد الإقليمي» و«الدولاتية»، في إشارة إلى الظواهر الاقتصادية في الإمبراطورية. تفرض الوقائع أوليتها. والتطورات تبرز تأثير السياقات التي لا مجال لإهمالها. ثمة مرحلتان لا بد من استعادتهما على صعيد الإمبراطورية: الأولى، تمتد من أوغسطس إلى ماركوس أوريليوس وهي تتميز بحدوث ازدهار عام؛ والثانية، من نهاية أسرة سفيروس إلى أسرة ديوقليطس، وقد تميّزت بأزمات متكررة وعميقة. وبين الحقبتين حقبة انتقالية حملت ظروفاً مناسبة وصعوبات يمكن التغلب عليها. فلا يمكننا التحدث عن انحدار لا يمكن تحاشيه في أية لحظة من اللحظات.

1 ـ الحرية والرقابة: إن وجود مركز روماني مكوّن من تجمع يضم الملايين مستقل عن الأقاليم ليعاون على حمايتها

ويستجيب لرغبات السكان كان أمراً يثير الاهتمام كليّةً. والجغرافي في سترابون لم ينسَ أبداً أن يشير إلى أهمية المنتوجات المحلية بالنسبة لرومان المدينة. ثمة عامل آخر يحدده الإمبراطور بنفسه بوصفه مستهلكاً للموارد الفريدة، ومالكاً ومسؤولاً عن التموين المديني. بالمقابل، فإن الأبعاد المحددة لسياسة القياصرة الاقتصادية ودون ما تواصل فعلي، وخارج التدخلات التي ترتبط بوعي بعض آليات ارتفاع الأسعار وتأثير تقلبات العملات، إنما تنزع إلى اعتماد فكرة تفتيت وتقليص النشاط والثروة. ترتبط الضريبة، والعملة بممارسات كونية، إلا أن استعمالهما والنتائج التي تترتب عليهما تختلف من منطقة لأخرى. تظهر الأبحاث الحديثة، وبعد ما قام به الآثاريون من جهود، أن الاستقصاء الجغرافي الاقتصادي في الإمبراطورية قد صار مجدداً من الأمور التي هي أكثر راهنية. فلا يتعلق الأمر بلائحة شرفية إقليمية تتناول المنتوجات وأحوال السكن، بل بحسابات معللة تتناول العلاقات بين روما وأقاليمها وبإمكانيات «الفصل» مع المناطق على الأطراف.

كانت المبادلات والتجارة أساس تطور الاقتصاد. والنظام النقدي الذي يستند إلى دمج معادن ثلاثة (ذهب وفضة ومزيج قوامه الأقوى النحاس) كان السائد في كل مكان، ويمكن اعتماده إذا ما استمر كما في الحواضر اليونانية، بالمسكوكات المحلية. كانت العملة الذهبية (aureus) التي تساوي 25 دنيراً deniers (درهماً) والعملة الفضية التي تساوي 100 سسترس sesterces (عملة رومانية قديمة من البرونز) كانت مخصصة لرفع الامتيازات والهدايا. كان الدرهم (دنير) مستخدماً في دفع رواتب الجنود والموظفين كما يدخل في المعاملات التي تعتبر شرفية وذات قيمة

كمية هامة. كان السترس عملة حسابية بقيمة 4 آس، والآس هو الذي يسهل عمليات الدفع الجارية. أما ضريبة الإصلاح المؤلفة من ضريبة على الأرض وعلى الأشخاص فهي تفرض على كل سكان الأقاليم غير المعفيين منها. كذلك يفرض على المواطنين الرومان ضريبة إرث توازي 5%. أما الضرائب غير المباشرة المتعددة فهي توضع على الأعناق، وبيع العبيد، والضريبة الجمركية (2 أو 2,5% من قيمة البضاعة)، البيع بالمزاد، ارتياد الماشية الكلأ، منح الامتيازات والرخص. كانت الأمور الضريبية مؤشراً هاماً في الاقتصاد النقدي، وهذا لم يكن ليتعارض مع الحفاظ على الدفع في حالة دفع العشور على المواسم أو الضرائب على القطعان. هكذا كانت الخزينة الإمبراطورية تحافظ على عائداتها من الإرث المؤلف من أملاك عقارية ومناجم ومهن.

ساعدت حركة الناس والبضائع المطردة المقاولين والمنتجين والحرفيين باستمرار على مضاعفة نشاطاتهم. أما العاملون المؤثّرون فقد كانوا مع ذلك أفراد النخبة الاجتماعية من مشايخ وفرسان، هذا لم يكن ليقف حائلاً دون دينامية بعض المعتقين الذين كانوا على أتمّ الجهوزية للمخاطرة وللاستفادة من الظروف. وبواسطة بعض أفراد أسرهم استطاع المشايخ الذين تمنعهم الظروف نظرياً من تعاطي التجارة والمهن المالية أن يضاعفوا مصادر دخلهم. خضع وضع رجال الأعمال ومن يتعاطون الأعمال البنكية لدراسات أوفى (J. Andreau). كان الدين بالفائدة أمراً لا مفرَّ منه بالنسبة إلى الحياة الاجتماعية: وكان تاجر المفرق يفضل الاستدانة على المس برأسماله، الذي يُعتبر أساس التصنيف الاجتماعي. ولم يتردد أفراد النخبة على الاستدانة أيضاً حتى بمعدلات فائدة مرتفعة عن المعدل المشروع (6 إلى

12%). فالاختصاصيون الذين يقال لهم argentarii يمارسون الدين بالفائدة والمزايدات؛ أما الصرافون nummularii فيتبادلون صرف القطع المالية التي يتحققون من قيمتها. ثمة فئة أخرى تختزن المدفوعات، أو تمارس الأعمال هذه مجتمعة. أما الوسطاء، في ظل الإمبراطورية فكانوا من التجار الذين يمارسون التسليف البحري على مختلف الثروات وعلى حمولات البواخر. يقيم رجال الأعمال علاقات وطيدة فيما بينهم، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يكوّنوا في روما جماعة متجانسة تقرر إشارات النمو أو الانحسار في النشاط الاقتصادي. فلم تكن روما لا لندن ولا نيويورك. كانت الأعمال الاقتصادية تبث في ظل القياصرة ثم تمرّ إلى أيدي الناس في الأقاليم، وهذا لم يكن ليثير العجب خاصة إذا قارنا تطور الأوامر والإجراءات التعويضية التي يتخذها الأباطرة.

كان على القياصرة التزامات تجاه روما وتجاه الجيوش التي يجب أن لا ينقصها أي شيء. إلى جانب إدارة المحاصيل السنوية التي تعتمد على القمح وعلى فائض المجالات الإمبراطورية، تمتلك السلطة وسائل مختلفة لتراقب التموين الذي يكتسب سمة سياسية. شراء محاصيل بأسعار متدنية إبان مرحلة التسوق، والمصادرات والأداء العيني يسهمان، بالنسبة للحبوب والزيوت على الأقل في تأمين «سوق مدعوم» (A. Tchernia). كان متعهدو النقل أو أصحاب البواخر ملزمين بعقود تمتد لست سنوات بخدمة الدولة مقابل امتيازات وإعفاءات قادرة على جذبهم. ولم تكن دورة استيفاء المحاصيل و الحياة العسكرية لتمنع التجار ومتعهدي النقل المتعاقدين من انتهاز الفرص والمساومة على مخزونهم الخاص. بالموازاة، لم تكن روما أكثر من مركز استهلاكي عملاق (J. P. Morel): وفيها تزدهر النشاطات الإنتاجية والمبادلات، يدفعها

على ذلك وجود غنى سكاني وحوافز تقوم على المصاريف الإمبراطورية، والعادات وأذواق الأرستقراطية المشيخية وأرستقراطية الفرسان، كانت الأولوية للمركز الروماني في حالات المضاربة وكان خدم الحاشية الإمبراطورية والولاة هناك من أجل السهر على ذلك. أما الجيوش الإقليمية فكانت تتزود بالمؤن محلياً في كل مرة تسمح الظروف المُناخية بذلك. وقد اتبعت الخمور والزيوت طريقاً تحددت مع مرور الوقت.

2 ـ **عصر الازدهار**: منذ أوغسطس في أواسط القرن الثاني برز ازدهار النشاطات الاقتصادية في كل مكان. فالسكن تطور وتضاعف، والمدن تحولت وظهرت مدن جديدة، بما فيها من مساكن ومبانٍ ضخمة، أما الأغراض العادية أو ذات القيمة وآنية المائدة أو الغسيل والحاويات فقد تطورت، ما أوحى بتوسع كمي وكيفي في المبادلات، وبانفتاح جديد على العالم. وحركة الملاحة البحرية كانت تفزع العواطف أكثر مما تخيف القراصنة، والمحيط كان مسرحاً لآخرين غير البحارة الجسورين. أما الطرق البرية التي بناها الإداريون والجيوش فكانت تشجع التجار والمسافرين الذين يترصدهم قطاع الطرق، وكانت الأنهار والسواقي تستقبل البواخر المحملة بالبضائع وبالعابرين. أمّنت مراكز الرقابة وعلى مسافات ومراحل من الطرق، إلى جانب الخانات، تسهيل انتقال الفرسان والعربات. أرسلت الإمبراطورية موزعي بريدها في كل مكان جارّين على أكتافهم العربات. البناء في كل مكان، وكذلك الإنتاج. والريف كان يزداد غزارة سكانية وكان تجديد النشاط هو الدافع الفعلي لمضاعفة الإنتاج الذي يذهب في جزء منه إلى سكان المدن. ثمة تعديلات تقنية ترافقت مع تسميد الأراضي واستخدام الأدوات والطرق الزراعية. لم تختفِ المجاعات، لكنها صارت

نادرة، وتنوعت أنواع الغذاء. صار الحرفيون والتجار يفخرون بمهنتهم، كما أن الأغنياء صاروا محط شكر وتقدير الجماعات التي تعترف بما لهم.

في إيطاليا وفي الغرب، كانت «الفيلا» البنية المسيطرة وهي مركز بمجال زراعي تتراوح أبعاده بين 30 هكتاراً و300 هكتار، وهذا ما يتناسب مع غنى المجموعة الاجتماعية التي ينتسب إليها المالكون. تعدد الزراعات كان قاعدة: حبوب، زيتون، وكرمة في البلدان المطلة على المتوسط، وتستبدل الفواكه والخضار في أمكنة أخرى، تربية الأغنام والأبقار، المروج والغابات والأراضي البور كانت من الأمور الظاهرة. تكتسب هذه الاستثمارات مظهرها الطبيعي الفعلي في سياق يتحدد بمناظر منسقة بطريقة مختلفة تبعاً للتضاريس والقطع الأرضية الصغيرة. نتساءل عن تأثيرات التغيرات المناخية المحتملة، غير الواضحة على ما يظهر. تتبع «الفيلات» منطقاً يختلف عما ساد في تحديد مساحات لأصحاب المئة: فتحديد موضعها لا يتعلق بعملية تهدف إلى تحديد موقع الأرض. مساحات خضراء، وسهول ممتدة تزرع بالحبوب، أودية وأحواض مائية، أراضٍ جصية حجرية تساعد على زراعة الزيتون، هضبات وسفوح مشمسة تساعد على زراعة الكرمة، ارتفاعات يستغلها المزارعون، ملاك كبار، فلاحون صغار أحرار أو يتبعون سواهم، عبيد في خدمة آمريهم.

غيّرت الأقاليم الغربية من عاداتها، أكثر من الشرق الوارث لتقاليد هللينية أو هللنستية يتقاسمها مع روما. أما الأقاليم الإفريقية وإقليم آسيا وبتونيا «la Bétique» وبعض مناطق سوريا ووادي النيل العظيم الواقع بين صحراءَيْن، فكانت الأقاليم الخصبة التي تمدّ الإمبراطورية بالمؤن. كان الغنى الزراعي علامة واضحة

على الازدهار، لقد كان خميرة مجمل النشاط. أما النشاط الحرفي والمعامل الصناعية (J. P.Morel) فكانت مساوقة للاقتصاد الريفي المزدهر. إننا نجانب الواقع إذا ما تعمدنا قياس الوضع الاقتصادي باعتباره في جزء كبير منه خاصية الإمبراطورية. فقد استفادت جميع المناطق من ذلك لكن إيقاع الاستثمار كان يختلف تبعاً للعصور والضرورات السياسية أو ما يتعلق منها بالصيانات المختلفة. كان استخراج الحديد لا سيما من بلاد الغال، استجابة لشروط أولية، علماً أن الطبقات المعدنية كانت سطحية. كما ساعدت صناعة المعادن على ازدهار الأعمال الحرفية. وبعد القرن الثالث أظهرت مناطق الأناضول في الشرق وسوريا وأفريقيا حيوية أفادت الاقتصاد، وهذا لم يكن معروفاً جداً في المدن الإقليمية.

3 ـ **أزمات القرن الثالث**: لعبت الدولة دوراً مركزياً في المسائل المالية والنقدية وفي العلاقة بينها مع النظرة الشاملة لاقتصاد العالم الروماني: فهل يمكن الحديث عن سياسة إمبراطورية واضحة هنا؟ فهل اكتفى القياصرة بالبحث عن الحفاظ على مصالح الخزينة؟ إبان الازدهار، كنا نشهد قفزات فجائية، وعلامات على الهشاشة. وأزمة العام 33 الشهيرة كانت تشير إلى حالة دَين كبيرة تجاه المالكين الأغنياء، وقد ترافق ذلك مع انخفاض في أسعار الأرض وارتفاع العائدات الزراعية ومعدلات الفائدة (A. Tchernia). احتج بلين الأكبر، وكأخلاقي عنيد على تطور الحياة الأرستقراطية الرومانية الجامحة نحو الكماليات وعلى نتائج التجارة مع الهند (عطور، حرير، أحجار كريمة، توابل، بخور) ونزيف الذهب الذي تسبب به: إن جاذبية الفضة السهلة كانت تزيد من مخاطر كسب المشايخ ضد قاعدة ثبات الإرث

المادي المترابط بمثال اكتفاء مدني. هذا، وقد عمد نيرون لمرة أولى إلى خفض العملة الذهبية والفضية من أجل معالجة مسألة الفائض (J. Andreau). أما دوميتيانوس فقد أصدر قرارين يرميان إلى الحد من زراعة الكرمة، ولم يطبقا على ما يظهر، أما الهدف فهو تأمين الحبوب على حساب زراعة الكروم. وحين فرض طراخان على المشايخ والأعيان استثمار ثلث رأسمالهم في إيطاليا، فهو كان يهدف غالب الأحيان إلى إنقاذ سمعة مجلس الشيوخ الرومانية الإيطالية. يبدو الأمر معقولاً أن نصل إلى استنتاج يقول بأن الأباطرة لم يقوموا بأية سياسة اقتصادية دائمة، وهم لم يتدخلوا إلا استجابة لظروف الأزمة ومن أجل الالتفاف حول التوازن الذي يفرضه قانون الطبيعة. شكّلت الإمبراطورية الرومانية وحدة اقتصادية أرضية، إلا أنّ لا شيء يتصدر تنظيماً عقلياً لمساحة اقتصادية إمبراطورية. فالآليات التي أمكن ملاحظتها كانت تتحرك تحكمياً خارج المركز الروماني. إذ إن النظام الليبرالي بالذات لا يمكن أن يستقيم دون حد أدنى من التنظيم التقني والإداري.

شغلت الأحداث العسكرية والسياسية مكانة أساسية. فمنذ ماركوس أوريليوس كان الشعور بتهديد قومي على الدانوب قد عدل المعطيات. واستعادة أسرة سفيروس للسلطة لم توصل إلى استعادة الثقة إلا بعد قرارات كانت لها نتائج ثقيلة. بين عامي 250 و274 ترافق الانحلال العام الذي أصاب النظام النقدي مع تتابع لم ينقطع لسلسلة من المصاعب العسكرية في القطاعات الحدودية من الإمبراطورية، أما العام الذي شهد أسر فاليريوس (Valérien) (260) فقد كان علامة على انحلال لم يكن بالإمكان تحاشيه إذ اختفت العملة المعروفة بالـ «سسترس»، كما انهارت في

المشرق المسكوكات في الحواضر. كان انحسار المبادلات أمراً واقعاً، وذلك يعود لتردي العلاقات مع الإمبراطورية الفارسية ومع الجرمان الأحرار، وبسبب التقطيع الإقليمي للإمبراطورية الرومانية بسبب الموقف الناجم عن الأزمة. وسط هذا الجو الكارثي تكاثرت التعديات تجاه الجنود الذين كان لا بد من شرائهم لا مكافأتهم ولا إغضابهم. مهما يكن من أمر، فإن حالة الدولة لم تتغير بشكل جذري: فلا توجيه ولا تدخلات، ولا سياسة اقتصادية ذات بُعد عام نبعت من جو الإمبراطورية هذا بالشكل وبالمقاومة. أدت الإصلاحات المتتالية التي حاول العديد من الأباطرة القيام بها لتهيئة عمل ديوقليطس الذي ارتبط بالتقليد وبالحفاظ على قوة روما. كان الحفاظ على الإمبراطورية ومراقبتها الكلمات الأساسية لهذه المرحلة.

كان النصف الثاني من القرن الثاني إيذاناً بانقلاب الرغبات والميول. صار انخفاض العملة أمراً محسوساً، كما أن قيمة الدنير قد أخذت تتناقص. إن خفض قيمة العملة زمن سبتيموس سفيروس قد توافق مع الظاهرة إذ وصل التخفيض إلى ما يوازي 50% ما أتاح مواجهة أجور العسكريين والنفقات العسكرية. وقد أطلق على القطعة الفضية الجديدة اسم انطونينيانوس (antoninianus) (وهي عبارة مجهولة في النصوص)، وهي توازي دنيرين، هذا ما يشهد عليه التاج الشعاعي الشكل وغير المغطى بالغار، وقد كانت قيمة هذه العملة الوزنية أدنى من قيمتها الاسمية: وقد أوجدها كاراكلا (Caracalla) من أجل دفع أجور الجنود التي زادت بنسبة 25%. عام 215، توقف العمل بها من قبل بوبيانوس (Pupien) وبالبنيوس (Balbin) عام 238 من أجل مداهنة الجنود. وبعد طراخان صار الدنير نادراً وصارت العملة الجديدة

معياراً. في عهد غاليانوس (Gallien) (260) توقف العمل بسك العملة البرونزية وتدنت قيمة الفضة في «الأنطونينيانوس» (2% ثم تلاشت)، ليتحول إلى قطعة برونز بعيار سيِّئ ثم إلى قطعة نحاس. توالت سحوبات العملة وسحب الذهب جزئياً من التداول ورفعت قيمته ليقاوم بشكل أفضل. حاول أورليانوس (Aurélien) قبل ديوقليطس القيام بإصلاح اعتمد دون شك على التحديد الاسمي لكل قطعة وبشكل تحكمي: فكانت العملة المسماة أورليانوس *aurelianus* (من نحاس وفضة) ولكنها لم توحِ بالثقة، ثم العودة إلى سك العملة الذهبية التي تناسب الدولة، ما دفع بالعملة الفضية والبرونزية جانباً. وفي مصر وبسبب إصلاحات أورليانوس ارتفعت الأسعار، ما أشار إلى مسؤولية الإمبراطورية بالتلاعب. في المراحل السابقة كانت الأسعار على ما يظن، أكثر حساسية لنوع العملات. كان ثبات النظام النقدي حول قيم ترتبط بقيمة العملة الحقيقية شيئاً، أما مراقبة الأسعار وعودة الضرائب فكانت أمراً آخراً. استطاع م. كوربييه (M. Corbier) أن يحسب التضخم الذي حصل في القرن الثالث، وقد قدّره بـ 3% كمعدل سنوي، دون استثناء معدلات أعلى.

حافظت العملة النحاسية على قيمتها في المبادلات اليومية. ومن المحتمل أن تكون القطاعات الضعيفة قد عرفت انحساراً في التواصل، إلا أن بعضها الآخر قد استطاع الاستمرار مستنداً إلى مخزون قديم أقل قيمة. مهما يكن من الأمر، فإنه لا يمكن الاستناد إلى الصدف من أجل التأمل في النتائج الاجتماعية الانتقائية لهذه الأزمة، كما أن الاعتماد على انحلال الحواضر يوشي بالكثير من الحذر.

III ـ حواضر بالآلاف

إذا لم يكن علينا سوى الإبقاء على معطى واحد، فإن التوسع الكوني للحاضرة كان سمة الإمبراطورية الرومانية. فمن طرف إلى آخر من مساحة الإمبراطورية، كانت «إمبراطورية الحواضر» تشهد النور. جماعات محلية منظمة تبعاً لنموذج يوناني ـ روماني، نموذج المدينة، أو الحاضرة، إنها وحدة سياسة ذات قوام إنساني، تقدم لكل ساكن أفقاً جماعياً وهوية لا بد منها. خارج الحاضرة، لا وجود يستحق هذا الاسم. والسلطة الإمبراطورية لم تكن تعرف إلا ممثليها كمحاورين. عمل احتفالي يعطيها الحياة، ويمنحها «حقوق الحاضرة»، أي الاستقلالية المؤسساتية والقانونية التي تقوم على قواعد دقيقة، كما تمنحها قدرة مالية وامتيازات تدخلها في علاقة تبادل مع روما والحواضر الأخرى. تقوم السياسة المحلية في كل مكان على روح المنافسة، ومعنى المصلحة العامة والمضاربة من أجل ترسيخ الاحترام اللازم للقانون في النفس. تركز الجماعة المدنية التي تقودها نخبة معينة على نفسها الانفعال والثقة واعتزاز المواطنين.

1 ـ التشريعات والحرية: تُعتبر كل حاضرة وبشكل مسبق حاضرة وحيدة، هذا ما تشير إليه الصيغة الإقليمية التي يمكن تشبيهها بلائحة من الجماعات يمكن لكل واحدة منها أن تقيم علاقات ثنائية مع روما. شكل الماضي القديم نسبياً، التاريخ، طبيعة العلاقات مع الفاتحين عناصر تساعد على الإشارة إلى الطبقة، وإلى درجة الحرية، أو باختصار إلى التشريع السياسي. يبدو أن أوغسطس قد لطف من الأمور القانونية التي ولدت في ظل الجمهورية، دون أن يلغي الامتيازات السابقة كما أشارت إلى

ذلك لوحة بليانوس (Plinien). خارج ايطاليا، كانت الحواضر الغريبة على الحاضرة الرومانية حواضر حرة، يحتفظ بعضها بصفة «الحر» أو في حالة المعاهدة «بالفيدرالي». يصنف القانون اللاتيني، ثم القانون الروماني مراحل الانصهار الكامل للحاضرة، التي قد تكون مجرد كومونة لاتينية، والتي قد ترقى إلى درجة مستلحقة، أو مستعمرة. فالحاضرة المستلحقة وبارتباطها بالمواطنية الرومانية أول الأمر، قد انتشرت طيلة القرن الأول تحت الشكل المستحدث «مستلحقة بالقانون اللاتيني» وهذا ما تشير إليه الاكتشافات الأثرية البرونزية في شبه جزيرة إيبيريا بشكل خاص. وبالمقابل، فإن المستعمرات اللاتينية، لم تعد قائمة، مع استثناءات قليلة، منذ بداية الإمبراطورية. وحدها المستعمرات الرومانية هي التي وجدت أو أعلن عن رفعها إلى هذا المستوى. انقلبت هذه التراتبية بشكل نهائي بتأثير الحروب الأهلية. فالمستلحقة صارت أدنى من المستعمرة، ذلك أنها ومن خلال تسميتها كانت تتمتع «بامتياز الحرية». (F. Jacques).

عرف الشرق المستعمرات في ظل حكم قيصر وأوغسطس، كما أننا نجد حتى في القرن الثالث إعلاناً عن رفع بعض الحواضر إلى هذا المستوى في كافة أرجاء الإمبراطورية. في كل الأحوال ظل القانون اللاتيني مجهولاً في الأقاليم اليونانية والهللينستية، وهذا ما لا يمكن إهماله حين يتوجب علينا تحليل واستخدام دلالته. تركت روما لليونانيين وهم الحرية الكاملة، سواء بإعطائهم تشريعاً يوحي بحرية الحاضرة، أو سواء باحترام إرادة المدن بالبقاء مدناً حرة (أي ليست لاتينية ولا رومانية). فالاستقلالية المحلية كانت قديمة فيها وكانت الجماعات تنعم بالمؤسسات كما أنها كانت تضم النخبة اللازمة لأداء عملها بشكل

جيد. تجربة القيادة السياسية والتقدير العالي للثقافة اليونانية، وكون روما قد اعتبرت نفسها وريثة الحضارة الهللينستية كانتا المعادل للتحفظات والشكوك بل وللاحتقار الذي يشعر به المسؤولون الرومان تجاه من يعتبرونهم أقل جدارة بلعب دور الجدود القدامى المجيد. لم تكن آسيا إطلاقاً اليونان القديمة، ومع ذلك فقد عرفت العديد من الحواضر في الأناضول دينامية جيدة ترافقت مع ازدهار بعضها بشكل فيه الكثير من الغطرسة. أبدت السلطة الرومانية حرصها على ردات الفعل وعلى اهتمامات هؤلاء الأعيان الجاهزين للمطالبة باعتراف ما، أو بمساعدة أو بحظوة معيّنة.

منذ عهد أوغسطس عرفت مناطق الإمبراطورية الغربية والناطقة باللاتينية التعود على الحياة البلدية وخفاياها. إلا أن إيقاع الظاهرة واتساعها قد اختلفتا باختلاف القطاعات الإقليمية. فشبه جزيرة إيبيريا قد عرفت الحياة البلدية بتأثير أسرة فلافيوس «la dynastie flavienne». أما بلاد الغال المنظمة تبعاً لنموذج الحاضرة منذ عهد أوغسطس فقد استفادت شيئاً بعد شيء ومنذ القرن الأول من مكاسب القانون اللاتيني. كما شهدت مناطق الألمان وبريطانيا والمنطقة العسكرية على الراين والدانوب ظهور مدن وبلديات كما اكتسبت حق الاستلحاف بالقانون اللاتيني. في أفريقيا ذات النظام القريب من القنصليات حلّت التراتبيات المختصرة والواضحة مكان النظام المربك القائم على جماعات تتوق إلى الاستقلالية والكرامة. وفي ظل أسرة سفيروس أدى إعادة تحديد مستعمرة قرطاجة إلى بروز مستلحقات جديدة، علماً أن رفع مستوى هذه الأقاليم لم يرتبط بهذه المنطقة وحسب، فقرطاجة بالذات قد اكتسبت الحق الإيطالي، إذ اعتُبرت أراضيها

جزءاً من إيطاليا وقد تمتعت بحصانة مالية. تعتبر مصر حالة نموذجية، إذ أدخل سبتيموس سفيروس النظام البلدي إليها من خلال خلق مجالس في الأماكن الأساسية من التقسيمات الإدارية. شكّلت الإمبراطورية مع الحواضر تآلفاً جيداً ومتناغماً. فحتى القرن الثالث كنا لا نزال نشاهد خلق جماعات جديدة أو ترقية مجالس مدنية. لا يمنع ذلك وجود انتهاء بعضها أو انحلال البعض الآخر. فقد كانت الحاضرة أصل الحياة المدنية في منطقة معينة وهي الوحدة الأساسية في الحكم وفي إدارة الأقاليم.

2 ـ **السياسة المحلية**: تتكون المؤسسات في الحواضر، سواء كانت ذات أصل ديموقراطي أو أرستقراطي من مجموعات تراتبية ثلاث وهي غير متساوية: الشعب، الولاة، والمجلس. أما الحواضر اليونانية القديمة فقد استعارت من أثينا أو من إسبَرطَة مروحة من الوظائف والمهام التي تغطي مجالات الحياة المحلية الأساسية: العدالة، المالية، إدارة الأماكن العامة، التمويل، التربية، الدين والألعاب. تختلف تسميات الولاة ومهامهم من حاضرة إلى أخرى؛ أرخونت archonte (حاكم أول)، مخطط عسكري، مهندس زراعي، سكرتير، مدير معهد رياضي، هي الألقاب الأكثر استخداماً. أما التجمعات ذات النمط الديموقراطي من حيث المبدأ فقد أخذت بالاختفاء. وقبل أوغسطس دون شك تبنّت بعض الحواضر الإغريقية «مجلس القدامى» ذي الأصل الإسبارطي المخصص لمواطنين موسرين يسموْن لمدى الحياة. أما المدن في العصر الإمبراطوري فقد تحولت إلى حكومات أرستقراطية. ولم يعد المجلس يُختار بالقرعة سنوياً، كما وُضعت شروط تتعلق بالثروة للدخول إليه. كان الشرف أمراً يقرر لمدى الحياة. والمجلس هو عصب الحياة المحلية، يراقب الشعب الذي يحصى

من خلال الضريبة ووحدة التقسيم الإدراي، والولاة السنويون صاروا المرادف الصحيح لنظام بلدي. حتى الأباطرة أنفسهم وجدوا أنفسهم يقومون بمهام مدنية. بدأت العبادة الإمبراطورية المدنية تجاه أوغسطس. إذ توجهت إلى الإمبراطور الحي الذي تآزرت التشريفات الدينية لتأليهه، وقد تولى ذلك كهنوتيات طموحة ومعتبرة توصل أحياناً إلى الكهنوت المحلي.

حافظت بعض الحاضرات الإيطالية، أو بعض الأقاليم الغربية القديمة على مؤسسات معقدة حملت سمة القوانين الموروثة من الجمهورية، أو التي تعكس الأساس السابق على القانون البلدي الذي سنّه قيصر (45ق.م.). تبنّت معظم الحواضر، المستحدثة، أو المستعمرة أو التي أعيد تأسيسها في ظل الإمبراطورية نظاماً مستلهماً من النظام الجمهوري عند الشعب الروماني: مجامع ولاة ينتخبون لسنة، تجمعات شعبية ذات توجه انتخابي مقسمة إلى وحدات انتخابية تسمى (قبيلة Curie)، مجلس لقادة العشرة يجندون على قواعد تأمين ضريبة الخراج التي تقدر محلياً. تُظهر القوانين البلدية زمن أسرة فلافيوس المحفورة على البرونز وهي غير مكتملة، وقد عثر عليها في ملقة «Malaca» وفي سالبنسا «Salpensa» وإيرني «Irni» في بتونيا [في إسبانيا] وجود نموذج من ست ولاة يشكّلون ثلاثة مجاميع ووزيرين، واثنين قيمين. وقد أوكل لهؤلاء مهمة إصدار القوانين وإحياء الحياة المحلية. كانوا يطلبون عقد المجلس، ويصدرون إليه أمر اليوم ويناقشون أو يدرسون تطابق المسائل التي يزمع بحثها. يكتفي المواطنون والمقيمون بالتصديق عبر التصويت على انتخاب المرشحين لمناصب الولاة والكهنوت الذين يقترحهم قادة العشرة والقضاة الذين يرأسون المجمع. كما في الشرق، من المحتمل أن نجد في

بعض الحواضر أن جميع الرجال لم يكونوا مسجلين في العشيرة. حتى لو كانت المشاركة عريضة فمن غير المؤكد أن يكون جميع الناس قد شاركوا فيها. فالإدارة الشعبية تعبّر عن نفسها أيضاً، وربما بشكل خاص بطريقة عفوية في الميدان، أو في المشاهد، أو إبان الأعياد المدنية.

كانت السياسة المحلية عملاً يقوم به الأعيان. ومكانها الوحيد المدينة، التي تشكّل المكان الرئيسي في الحاضرة، مركز المؤسسات ومركز الأبنية العامة الدينية أو الدنيوية الأكثر عظمة. تجري النقاشات في العشيرة، أو في المجلس، أما في المشرق وإذا عدنا إلى ديون البروسي (Dion de Pruse) وبلوتارك (Plutarque) أو أوليوس أرستيدوس فكانت تجري في الساحة العامة خاصة إذا ما توجب اعتبار جميع المواطنين شهوداً. يصدر قواد العَشَرة المراسيم التي ينضم إليها الشعب الذي يجب عليه التصديق عليها بأغلبية مطلقة، أو بأغلبية الثلثين. كان المجال الديني، وتأطير العلميات الانتخابية والحياة السياسية، ضمان حسن سير العدالة البلدية، من الأمور التي تحرك الكفاءات إلى جانب مراقبة الموازنة العامة ومالية الحاضرة. من الأنظمة المكتشفة في إيرني ومن الرسائل الإمبراطورية المتعددة نكتشف كم كانت الحواضر هشة وحساسة فيما خص مسألة النقد. على الولاة المسؤولين الانتباه وتقديم كفالات على إرثهم الخاص. فعليهم دفع «المبلغ الشرفي» المُعد لعمل الحاضرة حين ينتخبون. تختلف عائدات الجماعة البلدية (عطاءات، عقارات، مناجم، هبات) إلا أن المبالغ كانت غالباً متواضعة تتوافق مع امتياز وقوة الحاضرة. تشكّل أعمال الكرم الفردي فرصة لإعادة تقدير الانخفاض المالي؛ كما تسهم الأعمال الليبرالية في اندفاعة الحياة المدنية؛ ومن غير المؤكد أن تكون المصادر الخاصة بالحاضرة قد لعبت دوراً أكبر مما كان يعتقد غالباً. إذ علينا أن نميّز

وبحسب الحياة الاقتصادية المحلية تصرفات الأعيان تبعاً للحقبات. كانت المضاربات ومشاكل الدين بين الأعيان من أجل تجاوز أقرانهم بسخائهم مما يعرّض الحواضر لمشاكل مالية بطريقة ترجعهم إلى الوراء.

3 ـ التعبير عن حياة حضارية: لم يكن لدى روما شيئاً كبيراً تخشاه من الحواضر، غير المسلحة وغير القادرة على القيام بسياسة مستقلة. ومن الخطأ التأكيد أن السلطة الإمبراطورية كانت تحتقرها وأنها تسخر من لعبها العبثي والمدمر أحياناً. فالإمبراطور كان في حاجة إلى الحواضر كما كانت هذه بحاجة إليه. لذلك كان يصدف أن ينزعج من ميولها لزيادة مصاريفها وانتظار الحلول من فوق. كانت الاستقلالية قيمة أساسية، ولها ثمنها. والسمة التي تتصف بالمباهاة والعظمة والتباهي الأخلاقي، والتي تتصف بها مطالب الأعيان المحليين لم تكن وليدة نموذج ثابت بل كانت تعبيراً عن أسلوب العلاقات التي تفرضها شروط الحياة المدنية بالذات. والصيغ التي قد تدهش كانت تعبيراً إيجابياً عن بعض الأعراف المثالية التي كان يؤمل التماثل معها دون التوصل إلى ذلك دائماً. فخلف المحافظة والإحالة إلى التقليد الحاضر دائماً، كانت الحاضرة على ما يبدو خاضعة إلى تأقلمات لا مجال لتفاديها، علينا أن نقرأ تعلق النخب والمواطنين بجماعة لا مجال لتجاوزها، وعزة وكبرياء التشارك في هوية خاصة، والشعور بالحياة المدنية، في ظل القانون، كما لو كان تأليفاً للمدنية. فالصعوبات المادية ومسائل التموين والمشاحنات الداخلية والخصومات مع الجيران، وضرورات الانصياع للوالي أو للإمبراطور، كل ذلك لم يكن أكثر من ضريبة الحرية ومظهرٍ من مظاهر التنافس بين مواطنين موهوبين.

لم يكن شرف الوصول إلى درجة حاضرة أكثر من كلمة.

فحماية الألوهات كان استجابة لتخليدها. إذ يسهم الدين كلياً في بناء الجماعة: يجب تكريم الآلهة حتى تستطيع هذه متابعة وصايتها. تترافق الأعياد مع الألعاب ومع المشاهد، وهي تشكّل صدى لهذا الانتباه الإلٰهي. إن شهرة الحاضرة كانت مسألة تقدير، وإظهاراً لحب الذات واحترامها: مباريات في البلاغة، مباريات رياضية وشعرية وموسيقية، مشاهد في المسرح والسيرك والميادين، مآدب وهدايا تجذب سكان الأرياف والحواضر المجاورة وتسهم في رفع صيت الحاضرة. وبقدْر ما تكون الاحتفالات متعددة وغنية، بقدْر ما يكون السخاء تجاه الشعب والغرباء كبيراً، وبقدْر ما يخيّم المجد على النخب القائدة. وكانت النخب توضح سلطتها وسمعتها عبر ظهور المدينة بشكل احتفالي، حيث الجمال والخصوصية والأبعاد تفرض نفسها على الخصومات المحلية.

كان لا بد من إثارة إعجاب الجيران ودهشة النزلاء العابرين. لم تتردد المجتمعات المدنية في أن تشهد، وفي أدنى المناسبات، بأنها كانت تضع نفسها على نقيض البربرية. مع الوقت سعى الأعيان القلقون على إرثهم العائلي، وعلى تربيتهم الحسنة ونبل محتدهم إلى الحصول على إفادات تكريم من الأباطرة وقد تظاهروا بتقوية علاقات الطيبة والاندفاع والتكامل لصالح الخير المشترك. إن البحث الإدراي عن مظاهر الشرف لم يكن دون أخطار، لكنه كان يوحي بروح المنافسة الحرة ويشير إلى تفوق اجتماعي لا يمكن للجماعة إلا أن تعترف به. رغم التراتبيات وعدم المساواة، فإن التضامن القائم على الانتماء إلى الحاضرة نفسها كان مثار اهتمام ثابت عند النخب المحليّة: إن تناسي ذلك كان يُخشى منه أن يقطع تآلف المواطنين.

إن حب الوطن (المشار إليه بصفة philopatris) كان جديراً بالمدح في الحواضر اليونانية. تشير عبارة حب الوطن، وهي صيغة استُخدمت في النقوش اللاتينية إلى الرباط الدقيق بالوطن المحلي (المدينة، أو الحاضرة)، لا الانفعال تجاه «الوطن الكوني» روما (شيشرون Cicéron). أما النقوش في المشرق وفي أفريقيا في العهد القنصلي فغالباً ما تكلمت عن ذلك في العهد الإمبراطوري. بالمعنى المباشر، كانت الحاضرة ـ الوطن المكان الأصل بالنسبة للأسرة، وأرض الأجداد التي يرجع إليها الناس بعد تركها. فتغيير المسكن لا يعدل في أصل الفرد، إلا إذا رفض ذلك بحريته أو فرض عليه ذلك. ثم إن الوطنية، أو حب الوطن، كان مرة أخرى من العلامات التي يتميّز بها الأعيان. وقد أتاحت لنا الوثائق الحصول على شكلين من ذلك، الوطنية التي يمنحها أصحاب المجالس والوطنية التي يتمّ المطالبة بها. في كل الحالات فإننا لا نحصل إلا على متممات الوطنية.

تأخذ مظاهر التعلق العاطفي الاستثنائي دلالتها الكاملة تبعاً للمناسبات: فحب الوطن يعكس أفعالاً وقرارات سعيدة يقدّر لها أن تساعد على تحاشي الخطر أو ساعدت في الحفاظ على الروح الجماعية. يبرز «الوطن» حين لا يعود شيء آخر نافعاً: فاستخدامه يسمح للجميع الإحساس بذواتهم بمسؤولية تكامل الجماعة العينية وحفظ بقائها، الجماعة الحية والعارفة. يستدعي الوطن الهوية السياسية، والشعور بالانتماء إلى حاضرة متمدنة خالدة. وكلٌ يضحي في سبيله على قياسه وتبعاً لآفاقه الاجتماعية والعائلية. ولذلك لا نجد تناقضاً أن نرى مقيماً غريباً يعلن انتماءه إلى مكان آخر غير الذي يقيم فيه، فالمواطنية الرومانية تعلن نفسها، نصف ـ ساكن في أفريقيا ونصف مقيم في حاضرة أخرى. لم تكن

الحاضرة والوطن إلا الجزء الأكثر بروزاً في بناءات ماهوية صارت شديدة التعقيد. فلمن كان أصيلاً منها لن يجد وهناً في منطقة أخرى.

كانت الخلايا المدنية جوهر الإمبراطورية بالذات. لذلك نفهم لماذ لا يمكن وصف القرن الثالث بأنه عصر الأزمة وانحلال الحاضرة بل باعتباره مرحلة تآزر وتكامل سياسي قوي. تابعت الهللينية، عصب المدينة، تجديد نفسها. أما الأقاليم الغربية فقد تابعت تحولها نحو اللاتينية في إطار بلدي. فكونية النموذج الذي تمّ تبنيه ببطء بشروط محلية قد انتبه إلى التنوع في الوحدة. قد لا يكون صدفة أن نؤكد أنَّ الحواضر، صغيرة كانت أم كبيرة، قد دانت في تفتحها وحريتها إلى الإمبراطورية. لكن الملاحظ هو أن المجموعتين قد عاشتا تلاقحاً، وقد تطورتا على معيار الأحداث التي حملت التهديدات والأخطار. فمن مقاومة الإمبراطورية تنبع مقاومة الحواضر. ولا عجبَ في ذلك. إن ما يسترعي الانتباه هو أن عالم الحواضر قد ركّز الطاقات وانتباه النخب الفاعلة والطموحة، أي نسبة مئوية ضعيفة من ما مجموعه 80 مليون نسمة. ثمة جماعات من الأفراد قد ظلت بمعزل عن المراكز المتمدنة، وعلى مسافات منها يصعب اجتيازها، علماً أن هذه المجموعات قد ظلت في الإطار السياسي السائد. لا يتعلق الأمر بجماهير الريفيين الذين لا تتكلم المصادر عنهم إلا نادراً، بل بفئات مختلفة متنوعة كانت على الهامش ولأسباب مختلفة أيضاً، بل كانت الشهود بأن السلطات المؤلفة لم يكن في استطاعتها أن تراقب كل شيء.

الفصل الرابع

الإمبراطورية التي نحن بصددها

استندت السيطرة الرومانية، كما استند النموذج الاجتماعي الإمبراطوري إلى عدم مساواة صارخة كانت أساس كل الشرور، والمصادمات اليومية والأزمات الأكثر عمقاً. لم يحل اللجوء إلى القانون دون العنف الذي كانت تستخدمه الدولة أيضاً حين ترى ذلك مناسباً. لم يساور الأغنياء قلقاً باقتلاع الفقر. استمرت العبودية، بل ازدهرت: ولم يكن إلغاؤها أمراً يمكن التفكير فيه، حتى من جانب أبيكتاتوس Épictète، إذ تسهم العبودية في نظام الكون العقلاني. لقد عاش معظم الناس، رغم الرحلات والمبادلات والانفتاح على الخارج في عوالم مغلقة، سواء تعلق الأمر بالحياة الفلاحية أو بالمجموعات الإثنية أو بمن يمارسون حرفاً فاضحة (الممثلون، الحوذيون، المصارعون). أما النساء فكن يعاملن وبأغلبية كبيرة قانوناً وفعلاً كما لو كن أدنى أو كن أقليات. استفاد المواطنون الرومان وخدام الدولة من الحمايات ومن الامتيازات التي وجد المؤرخون القدامى لذة في سردها. لم تكن الإمبراطورية الرومانية نموذج عدالة، ولا نموذج تنظيم إنساني مثالي. فالمسألة هذه لم تكن مطروحة بكل وضوح. كما لم تكن الإمبراطورية إطلاقاً وسيط وحدة سياسية يرجوها الجميع. بعد

(الشعوب الأهلية) أو «الانصهار» كان يُنظر إليه كخيار فيه الكثير من التنقيص. علماً أن تعريف الإقليم، كوحدة إدارية لا يستقيم مع المقولات الإتنية والسياسية. ثم إن الحواضر واحدة بعد أخرى كانت تحدد المخاطبين المعترف بهم أو المعتمدين. تثير ردات الفعل والمبادرات التي تقوم بها النخب الإقليمية الذين لا تعوزهم الحجة تجاة السلطة الرومانية المؤهلة للاستماع إليهم أكثر من مجلس قرطاجة المنتصر المزيد من الاهتمام. ودون الوقوع في عيوب سلطة تنتبه لرأي عام على وعي بتأثيره، ودون الحديث عن حوار دائم، فإننا نلاحظ أن سكان الأقاليم قد استطاعوا إبداء آراء وتوصيلها إلى السلطات الفاعلة في مجالات حساسة كالمالية أو القضاء. إن غياب سياسة التمثُّل بأي ثمن كان من جانب المستعمرين من قبل المنتصرين المتعاقبة لم تتوانَ عن اعتبار الشعوب الخاضعة لها قد أسهمت في عظمة روما قبل أن تنظر إليها كأعداء. فالضريبة لم تكن إلا الرصيد الذي يقدم إلى روما دون عهد بالمبادلة بالمثل. والسلم يعني أن المدينة كانت سيدة اللعبة، وأن مؤسساتها وسلطتها تقودان العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الثقافية في الإمبراطورية. هذه «الرومنة الثانية» تحرك مجال الاهتمام باتجاه الحقل الاجتماعي الثقافي، كما يقول سترابون، فهي تقوم على «توجيه الأنظار نحو روما» ما يشير إلى أهمية عظمة المركز والمسافة الفاصلة بين الثقافات الإقليمية بالنسبة إلى المعايير الرومانية. فالخوف من البربري، أو النظر إلى الناس كبرابرة كان عنصراً حاسماً نادراً ما يُثار. أبدت الإمبراطورية الكثير من اللامبالاة إذ لم تمنح حرية واضحة. والحكم الذاتي لم يكن يعني الاستقلال. فعلى الصعيد اليومي، وفي مختلف الجماعات التي تشكّل قوام السيطرة الرومانية، كانت العوامل الثقافية الخلاقة آخذةً بالتطور وكذلك الامتزاجات غير

(الشعوب الأهلية) أو «الانصهار» كان يُنظر إليه كخيار فيه الكثير من التنقيص. علماً أن تعريف الإقليم، كوحدة إدارية لا يستقيم مع المقولات الإتنية والسياسية. ثم إن الحواضر واحدة بعد أخرى كانت تحدد المخاطبين المعترف بهم أو المعتمدين. تثير ردات الفعل والمبادرات التي تقوم بها النخب الإقليمية الذين لا تعوزهم الحجة تجاه السلطة الرومانية المؤهلة للاستماع إليهم أكثر من مجلس قرطاجة المنتصر المزيد من الاهتمام. ودون الوقوع في عيوب سلطة تنتبه لرأي عام على وعي بتأثيره، ودون الحديث عن حوار دائم، فإننا نلاحظ أن سكان الأقاليم قد استطاعوا إبداء آراء وتوصيلها إلى السلطات الفاعلة في مجالات حساسة كالمالية أو القضاء. إن غياب سياسة التمثُّل بأي ثمن كان من جانب المستعمرين من قبل المنتصرين المتعاقبة لم تتوانَ عن اعتبار الشعوب الخاضعة لها قد أسهمت في عظمة روما قبل أن تنظر إليها كأعداء. فالضريبة لم تكن إلا الرصيد الذي يقدم إلى روما دون عهد بالمبادلة بالمثل. والسلم يعني أن المدينة كانت سيدة اللعبة، وأن مؤسساتها وسلطتها تقودان العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الثقافية في الإمبراطورية. هذه «الرومنة الثانية» تحرك مجال الاهتمام باتجاه الحقل الاجتماعي الثقافي، كما يقول سترابون، فهي تقوم على «توجيه الأنظار نحو روما» ما يشير إلى أهمية عظمة المركز والمسافة الفاصلة بين الثقافات الإقليمية بالنسبة إلى المعايير الرومانية. فالخوف من البربري، أو النظر إلى الناس كبرابرة كان عنصراً حاسماً نادراً ما يُثار. أبدت الإمبراطورية الكثير من اللامبالاة إذ لم تمنح حرية واضحة. والحكم الذاتي لم يكن يعني الاستقلال. فعلى الصعيد اليومي، وفي مختلف الجماعات التي تشكّل قوام السيطرة الرومانية، كانت العوامل الثقافية الخلاقة آخذةً بالتطور وكذلك الامتزاجات غير

المعلنة، ما يعتبر أساس التغيرات التي يصعب ملاحظتها في مظهر الاستمرارية.

2 ـ التحولات: لا نعرف الكثير عن التحولات الثقافية في المجتمعات المحلية: والأعمال التي قد تساعد على التقدم في هذه الملفات ما زالت قليلة العدد وهي تتناول بناء النماذج الضرورية التي يجب قياسها، بل تفكيكها في محاولة منا لجعلها مساوقة للسياق. فلا وجود لكلمة واحدة تشير إلى ما حصل فعلاً. ففي الوثائق التي تعكس مضامينها بشكل أفضل التمازجات والاختلاطات التي خلقتها «الثورة الأوغسطوية» نجد أن النقوش الجنائزية والنذرية والأعمال الصادرة عن الأعمال الفنية والحرفية هي التي تقدم العلامات التي يمكن الوثوق بها. يشهد تباين العبارات، بالرغم من اللجوء إلى الملفات السائدة وإلى الأركان التي تعزى إلى تقاليد المنتصرين، أن سكان الأقاليم وبوجه الاهتمامات الخارجية، قد تعاطفوا مع الاستراتيجيات الفردية والجماعية التي تعبّر عن الإغراءات الرومانية وتحول أكثر من استحالة الالتحاق بها دون مجهود يذكر. وكما يذكرنا ج. وولف (G. Woolf) فإن ثمة حضارة جديدة قد فرضت نفسها مع الوقت: فالسيراميك والجرار والحمامات والبيوت وحتى الفضلات بالذات، كانت صدى للعادات الغذائية الجديدة، ولسياسة صحية جسدية متطورة ولعلاقات اجتماعية متجددة ولأذواق متحركة. أيّاً كان الانتماء الاجتماعي، فقد كان لكلٍّ أسبابه الجيدة التي تحمله على الاندماج في العرف السائد: والسؤال الذي يطرح كان يرتبط بمعرفة المدى الذي قيّمه المستفيدون، أو على العكس، المدى الذي لا يبرر مثل هذه الجهود. ثم إنه كان لنظرة الأنداد تأثير أقوى من تأثير روما. فالذين كانوا يندمجون كليّةً أو يلتزمون الرفض الكلي كانوا قلّة.

لقد كان الأمر مسألة تأويل فردي وجماعي في العملية الاقتصادية المطروحة.

3 ـ هويات جديدة: صحيح أن الممارسات قد دفعت باتجاه أن يصبح المرء «رومانياً»، وليس غاليّاً ـ رومانياً، أو إسبانياً ـ رومانياً، أو حتى يونانياً ـ رومانياً: إن الشعور بالانتماء المزدوج كان إشارة تحول، أو انتقال، وليس دليلاً على هوية ثابتة، لم يعلن عنها بوضوح إطلاقاً. بكل الأحوال لم يكن في وسع أي كان البقاء محايداً تجاه الحركة، هذا ما يفسر تحولات وتعبيرات التجدد. حتى إن الذين قد صاروا «رومانيين»، فهم لم يفعلوا ذلك إلا على طريقتهم، إذ لا نموذج خاصاً بذلك يسمح بإصدار شهادة على التحول إلى الحضارة الرومانية. فالاندماج السياسي والقضائي يعني الإقرار من حيث المبدأ بتطور وصل إلى نهايته هو في طور الاكتمال. إن أنماط الاستهلاك، وطرق اللباس وتبنّي لغة أخرى، لم يكن يعني التخلي عن تقاليد وعن طرق تفكير موروثة، لها طابعها الثقافي. بل إن التعلق باللغة الأم وبالثقافة السائدة لا يعني رفض كل تقدم، ولا التخلي عنه. يستدعي وضع النخب في الحواضر اليونانية مزيداً من التفكير. إذا يصار للتأكيد عادةً بأن اليونان قد ظلوا يونانيين و«يكرهون الأجانب»، ذلك أنهم يتمتعون بامتياز الأقدمية، وكانوا أقوياء بتفوقهم وكانوا يحبون فرض أنفسهم كأصحاب ثقافة ذات صبغة ماهوية. أيّاً يكن الأمر، فلا يمكن تحاشي الأفخاخ التي نصبها المثقفون اليونانيون بالذات القلقين على كونية ثقافتهم. لم يكن كل من ديون البروسي وأوليوس أرستيدوس من المدافعين عن القضية اليونانية، خاصة إذا ما تواجهوا مع حضارتهم أو مع الحضارة التي استدعوا لمدحها. لم يتوافق اليونانيون على مواقف يدافعون عنها. فقد كانوا جميعاً من

المؤتمنين على هبة لا يمكن محوها، المدينة: الميل الدائم إلى التباري مع كل الآخرين، حتى مع اليونانيين وحاضراتهم، إنها الطريقة الوحيدة التي يستحقون الوطن بها، جماعة حرة تكتفي بذاتها. وروما بهذا المعنى لم تكن تمنع التحول إذ إن موقفها قد استخدم العزم نفسه بحمايته للمدن. وقد فسر بلوتارك ذلك داعياً أقرانه للعمل في القضاء المدني بهدف الاستمرار في التأثير على سير الأمور. اندفع البعض الآخر في مبارزة حادة بهدف تشريف سيد روما واستدرار الخيرات على جماعته. نجحت نخب الحواضر اليونانية بأقلمة لغتهم مع النظرة التي كوّنوها عن الإمبراطور وعن السلطة الإمبراطورية باستخدام عبارات كانت مألوفة عندهم وهي مستعارة من توصيف السلطات الإلٰهية (S. Price).

II ـ مسألة التمرد

خارج أوقات الانتصارات، وقد أعرضنا قصداً عنها هنا، فإن الاستجابات على سيطرة الإمبراطور والدولة الرومانية كانت عنيفة في بعض الأحيان، لا يعني ذلك بالضرورة أن لها صفة ماهوية معلنة ولا هدفاً يقوم على المجيء مكانها. ومن الملاحظ أن مرحلة التأقلم مع القواعد الإدارية التي طبّقها أوغسطس قد شهدت الأزمات الأشد خطورة.

1 ـ **دور الضريبة المالية**: تقدم حالة بلاد الغال مثالاً جيداً عن العثرات والاعتراضات. فخلافاً لما كتب أحياناً لا نجد مبرراً لما يعرف بمسألة خاصة ببلاد الغال. فالرعب المفترض الذي يمكن أن يكون سكان الغال قد سببوه للرومان، لا نجد له صدى في المصادر. فالحنين إلى زمن الاستقلال لا يستقيم أمام الفحص الدقيق، إذ لا وجود إطلاقاً لوحدة غالية ولا لجبهة مشتركة تجاه

سلطة اعتُبرت طغيانية. أبدى سكان بلاد الغال ردات فعل متتالية تجاه الأحوال العسكرية على نهر الراين «Rhin»، وتجاه الإلزامات التي اعتُبرت قاسية بشأن خزينة الدولة وتجاه المسؤوليات الجديدة التي أثقلت بها حركة الانصهار الإداري كاهل النخب التي غالباً ما صارت هشة بسبب التصارع بين الأعيان. شكّلت الضريبة وأعمال التجنيد العسكري نقطتين على جانب من الحساسية. فالإحصاءات والكشوفات، التي كانت أساس العمليات كانت ومنذ عهد أوغسطس صعبة التحمل، إذ قام هذا الإمبراطور برفع الضريبة السنوية المفروضة بما مقداره 40 مليون سترس على ما كان مفروضاً على كامل بلاد الغال «Gaule». تُظهر أعمال الاحتيال التي قام بها الوالي الروماني ليسينوس (Licinus) عام 15 ق.م وتمرد الحواضر الغالية عام 21، ومرحلة الحرب الأهلية بين 68 و70، أنَّ طرق الإدارة المالية كان لها تأثيرها الأقوى من تأثير الضرائب بالذات. وإلى جانب مسؤولية الحواضر في كيفية الدفع، سواء نقداً أو بالتجنيد العسكري، فإن الهوة بين الإحصاءات التي تجرى والمبالغ المتوجبة على جماعة ما، والتي تقوم أساساً وفي جزء منها على غنى المواطنين الفعلي في الحاضرة، كانت أساس عدم التوازن وعدم الرضى. وبقراءتنا لتاسيتوس نرى أن نخب مناطق ترافييه «les trévires» والأودين «éduennes» الذين أبدوا عدم قبولهم بنزع بعض الامتيازات من جانب تيباريوس، لم يكونوا قادرين على تلبية كل الإلزامات التي فرضت عليهم: ضمان دفع الضرائب بانتظام، الصرف على رفاهية الحاضرة وتحسينها، الوقوف بوجه مضاربات الأغنياء الجدد، ضمان تجنيد شبان جدد يتعرضون للعدو. عرضت سيرورة العمل التي ازدادت حدة بالزيادات عند بعض النبلاء المحليين للوقوع في الدين الزائد، ما جعل الحفاظ على موقعهم أمراً مستحيلاً. وإذا كان خلع [الجنرال]

فينداكس (Vindex) عام 68 قد ارتبط بمبالغات نيرون في الشأن الضريبي، فإن بقية الأحداث لا تفهم إلا في سياق الحرب الأهلية المؤاتية لطموحات واستفادات غير معلنة كانت العودة إلى الهدوء نسبياً لفضحها. ومجمع ريمس (Reims) في ربيع عام 70، وبعيداً عن أن يكون «مجمعاً وطنياً» لكل أهل بلاد الغال، والذي كان عليه أن يختار بين روما وبين دولة غالية، لا يمكن تفسيره إلا بفراغ السلطة بسبب تغيّر الأباطرة المتواتر، والخوف من الانتقام والمعارضة بين حزب فلافي وبين من اعتقدوا بنصر فيتاليوس (Vitellius) وعدم تعريضهم للقصاص من جانبه. إن ما نسوقه عن بلاد الغال ليس أكثر من مثلٍ يُعطى. بإمكاننا وعلى مدى القرون الثلاثة قيد الدراسة مضاعفة التحليل وتأكيد التوصيفات. نكتفي بالإشارة إلى التمرد الأفريقي (تيسدروس (Thysdrus)) عام 238 والذي كانت غايته مواجهة الإدارة الإمبراطورية المالية التي عارضت ملاكي الأراضي. وثورة «الشباب» المسلحة قد انطلقت بإعلان نائب قنصل المقاطعة غورديانوس (Gordien) مثل أوغسطس. قام الجيش المجاور في نوميديا «Numidie» بقمع التمرد وقتل ابن مدعي الثورة الذي اختار الانتحار. ثم كان الإمبراطور ماكسيمينوس ضحية هذه الأحداث فترك المكان لابن غورديانوس الصغير، غورديانوس الثالث (Gordien III). إنطلاقاً من حكم عام شامل، نستطيع التمييز بين نمطين من المواقف: الموقف الذي يوصل إلى حرب أهلية، وكان له وقعه الفعلي، والموقف الذي يحكم على المتمردين بالعزلة رغم النجاح في البداية، ما يفتح الطريق أمام قمع قاس يتحمله الخاسرون التعساء.

2 ـ التذمر والمواجهات: حدثت أعمال عنف بين المتوطنين

في أرجاء مختلفة من الإمبراطورية، دون أن تصل دائماً إلى عمليات تمرد مسلحة. اشتباكات مفاجئة لا تترك لأي كان اكتشافها، سرعان ما تحجز ممثلي السلطة. وفي روما، كان على الإمبراطور أن يدفع بشخصه ليحمل الجمع على الهدوء. وفي الحواضر الإقليمية غالباً ما تؤدي المجاعة التي تتسبب بها الكوارث الطبيعية أو الجفاف إلى الهياج الشعبي. أما المضاربون الفعليون أو المحتملون فغالباً ما كانوا يبرزون ويتشاركون في أعمال العنف، رغم حماية الحاكم. في الأرياف، تحاول المجموعات السكانية غير الراضية الحصول على الإصلاحات باللجوء إلى السلطة الإمبراطورية، خاصة إذا كان المحرضون على البلبلة من العساكر أو من الموظفين. أما رفض الانصياع للقانون، والعزلة والفاقة وضعف الرقابة الإدارية، فجميعها أعمال كانت تعزز أعمال السرقة وقطع الطرقات، الأمر الذي لا تتحدث عنه المصادر إلا إذا كان الحادث يؤثّر مباشرةً في السلطة أو في شخص الإمبراطور. وبهذا المعنى المميّز، كان التمرد الذي اعتبر بدعة، وقد قام به الهارب من الجندية «ماترنوس (Maternus)» إذ انطلق من ألمانيا، لينهب بلاد الغال بين 185 و187 قبل أن تسقط محاولته بقتل كومودوس في روما. كان التستر بالأعداء العموميين أحد عوامل جعل مثل هذه المبادرات أكثر مأساوية. هذا ما نجده في بداية الثورة المصرية عام 172. إذ قام «رعاة البقر» في دلتا النيل، وبقيادة الأسقف إيزيدور (Isidore) بتهديد الإسكندرية ولم يتمّ الانتصار عليهم إلا بصعوبة وبقيادة قائد قوي، هو س. أفيديوس كاسيوس (C. Avidius Cassius)، أحد الطامحين مستقبلاً إلى خلافة ماركوس أوريليوس، استناداً إلى إشاعة. كان البُعد الديني حاضراً وقد تآزر مع مسألة اجتماعية (إذ انضم إليهم بعض الفلاحين الذي تركوا قراهم) ومع وسط طبيعي يميل إلى المقاومة وإلى

الحيلة، علماً أن قطاع الطرق قد حالفهم الحظ في معركة منظمة. أما ردة فعل السلطات فكانت متأخرة أيّاً كانت أسبابها، وهذا ما سهل انتشار الحركة. وفي مصر، كانت الإسكندرية بشكل خاص المدينة التي قامت بأعمال عنف متكررة. وإلى جانب التوترات الدائمة التي قام بها الإسكندرانيون مع السلطة الرومانية التي أنهت التحركات، نجد الخلافات المتكررة بين الجماعات اليونانية واليهودية، كما نجد الحساسية الحية بين سكان مختلطين وبعدد كبير يضاف إليهم المهمشون والعائلات التي أسقطت حقوقها.

لم يكن الدين، وبشكل مسبق، مصدر الأزمات العنيفة في الإمبراطورية الرومانية. فالعبادات المختلفة قد تعايشت إلى جانب بعضها في كل مكان، وكان ذلك نابعاً من تقاليد محلية معقدة. انتشرت العبادات الشرقية، الهللينية وسواها في الشرق، دون أن تستثير أية معارضة، اللهم إلا ما يثيره كل جديد وغريب. ازدهرت أشكال الورع تجاه الألوهيات ما قبل الرومانية في أفريقيا وشبه جزيرة إيبيريا، وبلاد الغال وبريطانيا. وبشكل شخصي كان كل فرد يكرّم الألوهية التي يختار. أما المسؤولون عن الكهنوت والمزارات غير الرومان فكانوا دون شك خاضعين للرقابة، وإذا كان الكهنة والتضحيات البشرية من الأمور الممنوعة رسمياً، فإن تطبيقها لم يكن مراعياً باستمرار. فقد سجل أن الكهنة الغاليين أو السلتيين والتضحيات البشرية كانوا صورة وهمية، لكن هذه المغالاة في الدين قد مثّلت خطراً على السلطة تماماً كالسحر، أما الممارسات الهادفة لمعرفة المستقبل فقد كانت من علامات الريبة تجاه الإمبراطور الذي كان يؤمل زواله. والجريمة الدينية كانت موجودة أيضاً: فهي تنتج عن سلوكات غير محدودة تعتبر ضارة «بسلام الآلهة»، هذا السلام الذي تستند إليه الديانة العامة في

روما وفي الحواضر الأخرى. لم تكن المشاركة في الاحتفالات الجماعية إلزامية. يكفي حضور قاض أو كاهن حتى يكون الاحتفال مشروعاً. لم يكن في وسع المواطن الروماني أيّاً كان أن يعرض ممارسة الشعائر الأساسية لأية بلبلة دون أن يواجه خطراً أكيداً. والعادة التي تستخدم في رسم إطار ما «كان مقبولاً» (S. Price) وتالياً غير مقبول، كانت تؤشر إلى أولية الالتزام بدين الأجداد. وحين يصار إلى تغيير الحاضرة ويصبح المواطن مواطناً رومانياً، كان الآلهة الذين يرعون الإمبراطورية يتحولون إلى ألوهيات سلفية يتوجب احترامها، حتى بالنسبة لليهود الذين أصبحوا مواطنين ولم يطلب منهم التنكر لعباداتهم، فلا يجب اتخاذ أي إجراء ضدهم. لم تكن روما متسامحة من حيث المبدأ. فالخطاب الديني ينفي الحق بالإلحاد (بنفي الآلهة) المعلن. كان الدين مؤشراً قوياً على الانتماء إلى جماعة منظمة تكون السلطة محددة الهوية في وسطها وبواسطة سادة لامرئيين.

3 ـ **اليهود والمسيحيون**: رغم الصراع بين الجماعتين، ورغم ما تذكره المصادر اللاحقة على انتصار المسيحية، والتي تسود صفحة اليهود، فإن علم التاريخ قد اعتاد جمعهما حين يصار إلى درس علاقاتهما المتتالية مع الرومان، إذ إلى جانب تحدر المسيحية من أصول يهودية، فإن النظامين الدينيين يمكن جمعهما لا من منظور الشرك الخاص بالعالم القديم بل في إعلانهما التوحيد. فاليهودية الأقدم والمرتبطة بجماعة تتماهى معها وتتركز حول مكان مقدس، قد دخلت الحرب وفي أكثر من مرة مع السلطة الرومانية.

تواجد اليهود ضمن وحدتين متميزتين: في اليهودية، وقد تجمعوا حول المعبد في القدس وقد أعيد بناؤه بعد العودة من

المنفى في بابل (المعبد الثاني)، ويهود الشتات، الذين أخذوا بالحضارة الهللينية وكانوا في روما، ولكن في الإسكندرية أيضاً وفي شمال شرق ليبيا، ووسط جماعات آسيا الصغرى، دون أن ننسى أولئك الذين يعيشون خارج حدود الإمبراطورية. كان الحقل الديني أرضاً خصبة للصراعات الحاقدة بين اليهود والرومان، إلى حد الوصول إلى عدم تفهمها. فالوصف الذي يقدمه تاسيتوس عن الديانة اليهودية وعن ممارساتها ورهبانياتها، كان تعبيراً عن عدم فهمه لما يوحيه التوحيد ولا القانون الموسوي لدى النخب الرومانية. مع التأكيد أن تاسيتوس قد تصرف بوصفه المدافع عن الدولة الرومانية. إذ عكس ذلك أيضاً الخشية الدائمة من المؤامرة. أن ينقل المؤرخ دون قلق، دون تحقق ودون فحص صارم للتأكيدات التي تحور الواقع وتجعل منه واقعاً كاريكاتورياً، ليس أمراً مدهشاً ولا خاصاً بالديانة اليهودية. فالمعيار الأوغسطي للبربرية وقد طبّق على العبادات في مصر وعلى حيواناتها المتحولة آلهة قد غذّى فكرة الوهم، والمسافة السيئة بالنسبة إلى الكائنات الإلهية. فالتوحيد قد نفى، فيما ينفي، آلهة روما. ويهوه كان إلٰه اليهود وحدهم الموعودين بالسيطرة الكونية. لا يمكن لمثل هذه التصورات، بأعين الرومان، إلا أن تخلق الفوضى والشك في القوة الرومانية. فمنذ أن دخل بومبيوس (Pompèe) عام 63 ق.م. في «قدس الأقداس» لم تعد السيطرة الرومانية محمولة كما يجب. وخلق إقليم اليهودية بعد هيرودوس (Hérode) عام 6 ب.م. قد عزز هذا الرفض. كانت السيطرة، في قلب الصراعات ولم يكن الدين عصبها. إذ أدت الأعمال التعسفية والتي اقترفها الحكم الروماني إلى انفجار العنف. أما القناعات الدينية فقد أضرمت نار الحرب.

حدثت مواجهتان كبيرتان كانت أرض اليهودية مسرحاً لهما، وذلك أعوام 66 ـ 70، وأعوام 132 ـ 135. فبالرغم من رغبة إجماعية بفلسطين مستقلة، فإن اليهود كانوا أبعد من أن يكونوا جبهة، أو واجهة للسلطة التي كانوا يرغبون في رؤيتها وقد خرجت من أراضيهم. إلى جانب التفسخ الديني تضاعفت الانقسامات الاجتماعية، والخصومات الشخصية والتوترات الإتنية. ازداد الأعيان تحيراً تاركين المجال حراً إلى العناصر الأكثر جذرية، الذين أطلق عليهم فلافيوس ـ جوزف (Flavius-Josèphe) [مؤرخ يهودي] اسم «الزلوتيين les zélotes»، أو الفلسفة الرابعة. اندلعت الحرب بعد تحرش الوالي. وكان توسعها سهلاً بسبب النجاحات الأولية التي حققها المتمردون الذين واجهوا السلطات الرومانية غير المهيأة للمواجهة الفاعلة. عيّن نيرون ڤاسبيان عام 67. ومن اللافت أن نجد أسرة فلافيوس وبمساعدة من تيتوس، قد استطاعت أن تشن حرباً ضد اليهود وحرباً أهلية من أجل سيطرة الإمبراطورية. ترافق احتلال القدس عام 70، مع تهديم الهيكل الذي أكلته النيران. وكما هو الامر غالب الاحيان، فإنه من الصعوبة بمكان تحديد المسؤوليات في هذه المأساة الصعبة، إذ تظل هذه المسؤولية خاضعة للجدل. بالنسبة لليهود بدأت مرحلة جديدة، بدون الهيكل. وقد حيا فلافيوس ـ جوزف بطولة المقاومة في القلاع على شواطئ البحر الميت، والتي انتهت عام 73 بانتحار جماعي. بعد حوالى ستين سنة من ذلك كان سمعان بار ـ كوشبا (Simon Bar-kosiba) محرضاً على تمرد جديد يهدف إلى إعادة بناء دولة إسرائيل. استمر التمرد طيلة سنوات ثلاث كشفت أخطاء الإجراءات الرومانية البطيئة. قاوم العصاة مستخدمين المخابئ السرية التي وفرها لهم حقل المعارك. كان القمع خالياً من كل شفقة، وقد تحولت القدس إلى مستعمرة، وأخذ الإقليم اسماً جديداً

هو سوريا ـ فلسطين. وضعفت الديانة اليهودية بعد هذا الانكسار الثقيل وصارت ملزمة على إعادة تنظيم نفسها حتى تستمر. خضع كل يهود الإمبراطورية لضريبة نصف شاقل منذ عهد دوميتيانوس.

دفعت أحداث اليهودية بالعديد من المتدينين إلى الانضمام إلى أرض الشتات. وكان من أكبر انفجارات يهود الشتات ما حدث بين 115 و117 في ليبيا والإسكندرية ومصر وقبرص وما بين النهرين، إذ شن اليهود حرباً لا هوادة فيها على طراخان المنشغل بحملة عسكرية في بلاد فارس والذي أوكل الرد إلى سفيره ق. ماركيوس توربو (Q. Marcius Turbo). تركزت المعارك في مناطق ليبيا، لا في الإسكندرية. أما الحجة فكانت صراعاً ناشباً بين اليهود واليونانيين. أدّت المجازر وأعمال القمع إلى دق أجراس الخطر وسط الجماعات اليهودية في مصر. فمنذ زمن فيلون، وفي عهد تيباريوس كان النزاع السياسي يضع اليهود واليونان وسط معارك عنيفة، ومن ثم كان النزاع يمتد إلى روما ويهود الإسكندرية. خارج فلسطين أيضاً، فشل اليهود في البحث عن هوية خاصة مقبولة من جانب السلطة الرومانية والجماعات الاجتماعية الأخرى التي لم تر في ذلك إلا بحثاً عن خصوصية متصلبة. وفي هذه الأثناء كان اليهود يتقاسمون مع الشعوب القديمة الأخرى مبدأ الديانة «القومية»، ما يعني الترابط بين الجماعة السياسية والعبادات السلفية. إن رفض الغريب والتركيز على خصوصية المركزية اليهودية كانت السبب الرئيسي لسوء التفاهم والتحركات غير الخاضعة للمراقبة والتي صدرت من الجانبين معاً. ولنا في مرحلة العبادة الإمبراطورية في عهد كاليغولا والتي استمرت عبر رسالة كلوديوس إلى الإسكندرانيين

دليلاً على ذلك. فقد أثار الإمبراطور غايوس (Gaius) غيظ اليهود إذا أعلن عن رغبته بفرض وجود تمثال له في هيكل أورشليم (القدس)، وكان يعبّر بذلك عن رده على تهديم معبد للعبادة الإمبراطورية في (Iamnia). إزاء التوترات والهياج الشعبي فرض كلوديوس احترام العبادة اليهودية على أهل الإسكندرية، إلا أنه أمر اليهود أيضاً التقليل من طموحاتهم بالتساوي السياسي مع الهللينيين. وكما نعلم فإن هذا الاتفاق لم يكن له مفاعيل طويلة الأمد.

كذلك تركزت الصراعات بين المسيحيين والإمبراطورية حول مسائل على علاقة بالعبادة الإمبراطورية. لأنهم من أصل يهودي فطالما اعتبر المسيحيون أبناء فرقة يهودية علماً أن جماعات الشتات كانت أول الجماعات التي اعتنقت الدين الجديد. وقد اتهمهم نيرون عام 64 بحرق مدينة روما مستعيناً بالخلط مع اليهود الحاضرين بكثافة في العاصمة في المناطق التي تتجاوز نهر التيبر. لم يتخذ أي إجراء جديد كما لا يمكننا الدفاع عن وجود مرسوم أو قرار ضد المسيحيين. انتشرت المسيحية في المشرق وبتأثير واسع من القديس بولس. فبتأثيره انفتحت الفرقة على «الوثنيين» كما انفصلت عن الانتماء إلى جماعة سياسية. سجل هذا التطور قطيعة مع الأعراف الرومانية على ما تشهد عليه رسالة المؤرخ بلين الأصغر (Pline le Jeune) بخصوص المسيحية في عهد طراخان. أما التمييز بين المسيحيين واليهود في أوساط المسؤولين الرومان كما في أوساط الرأي العام فكان بطيئاً أول الأمر. وقد كان القرن الثالث قرناً حاسماً، إذ أكد على هوية المسيحيين والمسيحية كما ساعد على ظهور كنيسة بعيدة عن جماعات القرنين الأولين حيث تكاثرت الصراعات من كل نوع.

إن البحث عن مسؤولية الدولة، أو مسؤولية المسيحيين أنفسهم عن هذه المواجهات وما تبعها من اضطهاد ليس بالأمر الملائم. إن ظهور الجماعات بشكل علني قد عرّضهم للملاحقة كل مرة لا تكون الأمور فيها مستقيمة. أما أزمات القرن الثالث فقد عجلت في الاضطهادات المبرمجة التي تعرض لها القائلون بعبادة إله واحد الذين أظهروا عناداً لم تعرف كيف تواجهه ولا كيف تدمجهم فيها بعد أن حصلوا جميعاً على حق المواطنية منذ العام 212 على أبعد تقدير. خشي المسيحيون على قضيتهم وكانوا يجتمعون سراً وكانوا عرضة لأعمال عنف مفاجئة. ولم تكن الغالبية منهم من المحرضين أو من المتمردين. وكانوا ممثَّلين في كل الفئات الاجتماعية. لم تتأثر الجماعات في المشرق بما أصاب اليهودية من تفتت. فالمسيحيون في الإسكندرية، شأن اليهود فيها كانوا عرضة للانتقام والقتل بعد الأحداث التي حصلت في عهد طراخان. وحوالى العام 150 كان بالإمكان على ما يظهر التمييز بين الجماعتين حتى من قِبل المراقبين لهم من الخارج. دون الوقوع بالتعميم فإن البحث عن الاستشهاد قد أغرى الأكثر تطرفاً فيما بينهم. وقد كان لعمليات الاضطهاد سوابقها في ليون عام 177، وقرطاجة عام 203. لوسيان في بريغرنيوس «Peregrinus» أعلن عن فلسفة شعبية بحثاً عن الشهرة بأي ثمن، بل إنه اعتنق المسيحية لبعض الوقت وذلك ليعرفها بشكل أفضل. ظل العقاب يلاحق الذين يصمدون في رفضهم احترام الآلهة الحارسة للإمبراطورية وقد كانت العبادة الإمبراطورية الشكل الأكثر انتشاراً. والذين يكتفون «باسم» المسيحي إعلاناً منهم عن انتمائهم إلى جماعة إنسانية، ولا يقدمون الأضحية «للأصنام» كانوا عرضة للملاحقة بموجب قرار طراخان عام 250 والذي أكد عليه

فاليريانوس عام 257. أما تعليق القرار الذي حصل في عهد غاليانوس فقد كان مهلة واضحة وليس أمامنا ما يؤكد أن أورليانوس قد اتخذ إجراءات ذات بعد عام. فالأباطرة باستثناء عدد قليل منهم لم يتصرفوا لا كحماة ولا كمضطهدين للمسيحيين. فالنظام الداخلي والأخطار المحيقة بالسلطة شكلت معايير حاسمة. ففي ما يخص الدين، وكما على أصعدة أخرى لم يصل عنف الدولة حداً يعطل كل الاتفاقات. كما أن الخوف من العقاب كان يدفع بالعدد الأكبر إلى التساهل. أما اعدام المتعصبين فقد أخّر فرصة الوصول إلى اتفاق. فلا أحد كان يتصور أن الرهان على مدى طويل سيكون في استلام السلطة. ومع ذلك وعند نهاية القرن الثالث استطاعت الجماعات «الكاثوليكية» أن تؤمّن لنفسها موطئ قدم في إمبراطورية الحواضر في كنف كنيسة خاصة بها.

III ـ مسألة من «هم في الخارج»

إلى عهد قريب كان يتم الترادف بين انتصار المسيحية وانتصار البربرية. وبترك الترسيمات التحكمية نرى أن تسمية «البربر» لم تكن مبررة، ذلك أن الجرمان، والفرس والعرب والعديد من الشعوب المجاورة للإمبراطورية لا يمكن اعتبارها قطعاناً غير منظمة، متوحشة ولا يمكن إخضاعها للمراقبة. أضف إلى ذلك أن هؤلاء جميعاً لم يكونوا أصحاب مهمة تقوم على تدمير الإمبراطورية الرومانية بأمر إلهي. كما أن التنوع الجغرافي على الحدود قد ترافق مع مجموعات سكانية تختلف بطموحاتها وتعبر عن نفسها بعبارة (externi) أو «من هم في الخارج».

1 ـ علامات ضعف الإمبراطورية: بين عام 235 وعام 284

كانتِ حدود الإمبراطورية مفتوحة جداً وعرضة للهجومات. إن ضعف ردة الفعل الإمبراطورية، التي أعاقتها المنافسات السياسية والعسكرية قد عزز زيادة الصعوبات والأخطار لاحقاً، ثم إن غياب الوحدة في الإمبراطورية لم يكن مناسباً، بل كان مناقضاً، مع التكافل الإداري والمادي في مختلف القطاعات الإقليمية.

مالت حدود الإمبراطورية إلى الهدوء في عصر آل سفيروس، هذا لا يعني أن روما كانت في حالة الدفاع. فثمة حدود خطية قد تشكّلت، مثل جدار أدريانوس، والجدار الجرماني - الريثي الذي بُني بالحجارة في عهد كاراكلا، والعمل على الأراضي ما أدى إلى التواصل بين الدانوب والبحر الأسود في عهد أسرة فلافيوس. أما الحدود النهرية على الراين والدانوب والفرات فلم تحول النهر إلى حدود طبيعية. ومع ذلك فقد شكّل الدانوب بين ريثية وداسية ضفة الإمبراطورية ولم يكن بالإمكان اجتيازه بسهولة، إلا حين يكون متجمداً، كانت المعسكرات جميعها ضمن الضفة الداخلية والأساطيل تمخره بشكل منتظم. أما في سوريا والبلدان العربية ومصر وأفريقيا فالأقاليم كانت على تخوم الصحراء التي لم تكن في الشرق منطقة خطرة. شكّلت القلاع الموجودة منذ زمن طويل في كل مكان القطب الذي تنظم حوله كل الأجهزة الإقليمية. مالت المناطق الحدودية المجاورة إلى الهدوء والاندماج، أما الضغط الأكبر فكان على الدانوب، ما جعل الإمبراطورية ومنذ عهد ماركوس أوريليوس تستند على شعوب هي بمثابة زبائن لها، ولها حضورها على ضفاف الراين والفرات. تشكّل المبادلات المقننة أداة وصل بين الداخل ومن هم في الخارج بتأثير الجيش، ازدهرت المدن على طول نهر الدانوب.

وصلت الغارات المفاجئة والمعارك المندفعة إلى شمال إيطاليا، مهددة روما بالذات. ازدادت المعارك البحرية، كما ازدادات هجرة الشعوب الجديدة عند تخوم الصحارى، وتضاعفت الاعتداءات الجديدة التي قام بها البارثيون (les Parthes)، الذين صاروا فيما بعد الفرس الساسانيين، على الإمبراطورية، متخذة في كل مرة أشكالاً عنيفة. لم يعد بالإمكان الإمساك بالعدو. أعمال نهب، حرائق، مدن محصنة تخضع لحروب لم تعتد عليها، لا هدف لها إلا الغنيمة والأسرى. وفي الشرق أحدثت الجهود التي بُذلت من أجل استعادة مملكة الفرس عسكرياً آثاراً خطرة على روما وعلى الأباطرة.

لم تكن الأعمال العسكرية التي دبرها الأعداء اعمالاً منظمة، وإن كانت متشابهة، متزامنة. إذ أدت صعوبات الإمبراطورية إلى حدوث الثغرات وإلى تصلب المهاجمين. أوصلت سلسلة الغزوات والتخريب والحرب الأهلية، والهجومات إلى المس بسلامة الأراضي وبسياسة رقابة الشعوب المجاورة. قتل بعض الأباطرة بأيدي جنودهم، أو ماتوا في المعارك إذ كان عليهم أن يكونوا المثال حتى لو كلفهم ذلك حياتهم. كان سفيروس الإسكندر ضحية تردده ورخاوته: كما أنَّ العساكر في جيش جرمانيا قد تمردوا وتخلصوا من أوغسطس الشاب ومن أمه، معلنين تنصيب ماكسيميناوس (Maximin). وبعد أن جرح في معركة ضد الفرس بقيادة شابور الأول، توفي غورديانوس الثالث على بعد 40 كلم إلى الشرق من بغداد. كان طراخان قائداً جيداً، تولى محاربة القوط. أما قمة اضطراب روما فقد ظهرت عام 260 حين سقط فاليريانوس أسيراً قرب حمص على يد شابور، ولم يستطع غاليانوس القيام بأي شيء لتحريره. نتيجة ذلك قامت إمبراطورية

بلاد الغال (260 ـ 269). لم يعد في وسع الإمبراطورية أن تردّ على كل الجبهات فصارت ضحية توسعها، وقد بدا أن قدرها قد آل إلى التفتت الإقليمي. فخسرت بلاد ما بين النهرين وبلاد داسية «la Dacie» والأراضي بين الراين والدانوب.

2 ـ تجاهل متبادل: اكتفت إمبراطورية روما ومنذ وقت طويل برؤية لامتوازية عن العالم. فعظمة روما التي أرادتها الآلهة لم تكن لتخيف الأعداء الذين لا وحدة تجمعهم ولا عقيدة. أما الشعوب الأكثر قرباً فكانت كما يقول سترابون أَمْيَلَ إلى الاندماج المطرد، بل الهادئ ويعود السبب في ذلك إلى قوة جذب الحضارة الرومانية الأكثر تفوقاً. فالأصوات المتنافرة لم تكن لتسمع. وقد ذكَرنا تاسيتوس بأن انقسامات الجرمان كانت بمثابة الهدوء الفعلي في روما، وهو تحذير لم يؤخذ على محمل الجِدِّ كغيره. على الصعيد الفلسفي، كان مشهد مجتمع فاسد ودون روح يغذي الحنين إلى قيم بسيطة وقوية تخص الأجداد، وكان البربر من جانبهم برهاناً على ذلك. إلا أن «البربرية» كانت أيضاً شاهداً على حسنات الحياة المتحضرة، وعلى الجهود التي بذلتها الإمبراطورية من أجل صالح المواطنين والانتصار على الفوضى. ولم يُصر أيضاً إلى القضاء كليّةً على البربرية. ولم يكن عليها إلا أن تعاود وجودها في الإمبراطورية بالذات. لذا صارت إعادة السيادة إلى روما بكل الوسائل الممكنة الحل الوحيد المقبول.

إن التغيرات التي تظهر أمامنا على خرائط ذلك الزمان لا تقدم شرحاً وافياً. فالتجربة على الأرض والاتصالات المباشرة مع هذا الشعب أو ذك، مع هذه الوحدة أو تلك كانت هي الأهم. وبالنتيجة فالمعلومات المتوافرة تبدو أكثر اضطراباً بقدْر ما نبتعد عن حدود الإمبراطورية، يأتي ذلك بالطبع في ظل غياب الأبحاث

المنهجية. وتاسيتوس شاهد على ذلك. وجرمانيا الحرة التي يقدمها لا تتعدى حدودها جزيرة البا. ثم أن الأوصاف التي قدمها قد غطت على حركات الشعوب التي لم تنقطع والتي كانت تأتي من الشمال أو من الشرق بشكل مستمر لتشوش هدوء الجيران الهش. لم تكن التنقلات شيئاً جديداً ولم تكن واسعة جداً إبان القرن الثالث. فثمة علامات على وصول غرباء مجهولين تصل إلى حدود الإمبراطورية. والذين نشير إليهم باسم «الجرمان الشرقيين» (القوط Goths، الفاندال Vandales، والبرغونديين Burgondes) كانوا إما يدفعون من يقف بوجههم أو يتحاشونه. وفي استمرارية الممارسات التي قامت زمن هجرة الألمان السواف (Suèves)، عرفت الإمبراطورية هجرات داخلية أثّرت في تنظيم الجرمان الغربيين الذين أعادوا تجميع أنفسهم ليتسنى لهم حماية نفسهم بشكل أفضل مشكّلين حدوداً قابلة للاستمرارية، مثل حدود الألمان والفرنج حيث جمعوا أعمالهم. فرضت الممالك نفسها كما لو كانت تأقلماً سياسياً للشعوب الآتية من الخارج. رغم بعض التأكيدات التي تقول إن الجرمان لم يتطوروا قط، وقد ظلوا مقسمين إلى قبائل لم تستطع أن تقلب موازين القوى مع روما، فإنه من الأجدى لنا أن نضع بعض الفوارق، فالشعوب الخارجية لم تكن تنوي في القرن الثالث أن تكون بديلاً للسلطة الرومانية، هذا لا يعني أنها لم تسهم في اضعافها أو لم تكن واعية بما لهجماتها من تأثير. لقد تبنوا تكتيكاً يتناسب مع الدولة وقواها. ففي عام 238 قام القوط في ظل ملكهم كنيفا (Cniva) وبالتحالف مع أقوام أخرى بغزوات على حدود نهر الدانوب في الإمبراطورية. يحدثنا الرومان عن حرب «السيث» [شعوب تتكلم اللغة الإيرانية بين الدانوب والدون]، علامة على جهل التطورات الحديثة للمعطيات الجيوسياسية بين البلطيق والبحر الأسود. وفي المناطق

الصحراوية في المشرق وفي أفريقيا كانت التغيرات تتعارض مع التوازنات التقليدية التي تعودت عليها الشعوب الرومانية. ثمة شعوب جديدة مثل «البافاريين» أُضيفت إلى السلوكات الجديدة لشعوب قررت أن تنظم نفسها بشكل أفضل، مثل النوباد (les Nobades)، والمور (les Maures).

إن أخطاء التمثل الروماني لم تكن لتُصحح بالتفاف الجنود الذين يتحدرون من أصل جرماني. فالوحدات التي تألفت كانت تدخل في النطاق العددي، أي في الفرق المساعدة ولم تكن تنتمي إلى كتائب المشاة ولا إلى الفرق التي تقاتل على الجناحين. يعود ذلك إلى نمط معاركهم مع الأعداء. كانت هذه ممارسة قديمة وقد شهدناها أثناء الحرب البونية الثانية فيما خص الفرسان المور والنوميديين (les numides). كان الأباطرة قبل حروب القرن الثالث يستقبلون السفارات الآتية من كل الآفاق من دون تمييز على ما يظهر. وبإمكان التجار أو الأسرى المحررين نقل المعلومات. كان كل شيء يجري وكأن روما قد وصلت إلى قرار يقضي بأن الخطر ليس داهماً ولا جدياً. كما تمّ الخلط بين المملكة الفارسية مع الإرث البارتي. إن نموذج الشعوب المغلوبة على أمرها والخائفة، التي تعودت إطاعة السلطة الطغيانية، الموهنة العزم بالرفاهية التي تعيش، كان نموذجاً يُطمئن الذين لا يريدون أن يروا أن السلالة الحاكمة الجديدة قد ضاعفت من قوة المملكة. وقد اكتفى شابور بما أصاب من مجد، ولم يستفد من أن روما بما لها من شروط، قد يمكن الانتصار عليها كليّةً. فالإمبراطورية العنيدة في قتال لا هوادة فيه قد تمسكت بالصمود أمام الفرس، وقد استطاعت على ما يظهر أن تتوصل إلى ذلك، وكان هذا من علامات عظمتها. إن الروح التي سيطرت لم تكن مقتصرة على

المسألة الشرقية، إن رفض الخسارة والعودة إلى إرادة الانتصار قد هدفت إلى الحفاظ على الإمبراطورية والدفاع عنها دون تساهل. كانت المهمة المطروحة مهمة تفوق الطاقة البشرية، وهذا ما لا تنسى النصوص ترديده.

3 ـ **تهجير واستقبال**: من الناحية الرسمية، لم يكن السؤال المطروح يتعلق بالتراضي مع «البربر». أحرقت القرى وقد تحول الأسرى إلى عبيد، وقد أجبرت الشعوب على العودة من المكان الذي أتت منه. ومنذ بداية الإمبراطورية بحسب ما يقول تاسيتوس، لم يتردد الرومان أن يشتروا هدوءاً على مدى طويل حتى لو كان ذلك على حساب إعانات مالية. فضل كومودوس عام 180 الاكتفاء بعلامات التبعية مقدماً عطاءات من القمح ومن الأراضي بدل متابعة سياسة والده الهادفة على ما يبدو إلى ترسيخ إقليم من سكان من أصل ألماني (ماركومان Marcomannie) فيما وراء الدانوب. وعلى سبيل الاحتياط رأى وجوب ترميم الحصون دون أن يكون أكيداً من النتيجة. من الناحية العسكرية واجهت الجيوش الرومانية الأعداء وقد تبنت التكتيكات وأنواع السلاح التي تتناسب وشروط القتال. فالضباط والضباط الأدنى رتبة الذين خرجوا من الصف والذين يحاربون إبان خدمة طويلة قد بثوا روح المقاومة والانتقام التي صارت مضرة حتى بالأباطرة. منذ عهد غاليانوس ومع الاحتفاظ بما أمكن من القوة من أجل رقابة الحدود التقليدية، أوجدت الإمبراطورية «جيشاً ريفياً» يلتف حول الشخص الذي يمثّل الإمبراطورية. تألف هذا الجيش من وحدات وحملة أعلام تجمعت تكتيكياً تلبية لحاجات الغزوات. وكان بإمكان هذا الجيش بنواته الثابتة الانتقال من جبهة إلى أخرى تبعاً للظروف والعجلة. شكّل ذلك وسيلة للإمبراطور

الشرعي ليوهن عزم الأعداء الذين يأملون باستمالة الجنود. في كل الأحوال، شكّل عهد إعادة تنظيم الجيوش، وفي كل الحالات، مرحلة أمّنت صلابة روما وعززت إرادة دفع «البربر» خارج الإمبراطورية. استطاعت مناطق شمال ايطاليا الاستفادة من مهلة، كما استطاع غاليانوس أن يطرد المتمرد بوسطيموس (Postume) الذي كان دوره وفاعليته ضد مصالح الإمبراطورية. عام 269 انتصر كلوديوس الثاني (Claude II) على القوط في «نيش» [في البلقان]. وانطواء الراسيين إلى الجنوب من الدانوب على يد أورليانوس قد أدى إلى ثبات الخسائر التي لا يمكن تحاشيها وذلك من أجل مقاومة حركات تمرد الخارجين. كما استطاع هذا الإمبراطور أن يضع حداً لاستقلال تدمر في الشرق. هذا لم يمنع قيام حركات مقاومة أو غزوات جديدة كما حدث أعوام 275 ـ 276. ثم استطاع بروبوس (Probus) وقد صار إمبراطوراً أن يعيد بناء القوة العسكرية في روما.

كان بروبوس الإمبراطور الذي استطاع تطويع العديد من الجنود الذين استقدمهم من الشعوب الغريبة. وقد لجأت الإمبراطورية إلى ذلك حتى قبل حدوث الأزمات. لا يمكن لكلمة «إبعاد» أن تشير بوضوح إلى هذه الظاهرة، ذلك أن المجندين قد استفادوا من الرواتب وكانوا مؤطرين من خلال ضباط رومان. ويظهر من خلال بعض التسميات المكتشفة في قطاع الراين أن بعض هذه الفرق كان مباشرة تحت إمرة سافيروس الإسكندر شخصياً وإن كان ذلك شكلياً. وأنها فرق التزمت عدم خيانة روما. لا يمكننا مع ذلك تعميم هذا الأمر. فالجنود من الخارج كانوا جنوداً جوالين بإمكانهم الحصول على المواطنية الرومانية. أما سهرهم على حماية الحدود عسكرياً فلم يكن كبيراً ولا حصرياً.

فقد أشار تاسيتوس إلى وجود عساكر من مناطق في مناطق أخرى. فالجنود من أصل باتاني [جرمان الراين] الذين وصلوا إلى الراين السفلي في عهد أوغسطوس خدموا في جيش جيرمانيكوس (Germanicus) حتى قبل احتلال الأراضي الجديدة التي استقروا بها. والكلمة العامة «وثنيين» التي استخدمت في وصف هؤلاء المجندين تنطبق على المور وعلى البرتون. تخضع هذه الشعوب، أيّاً كان موقعها، لرقابة روما لتكون في خدمة الإمبراطور، كما لو كانوا زبائن له. هكذا كان يتم الانتساب إلى الجيش الروماني ولم يكن ثمة شروط أخرى، إلا في حالات استثنائية ممكنة دائماً. وبهذه الروحية علينا أن نفهم خيار بروبوس في تجنيده لستة عشر ألف ألماني وأن يوكل إلى الفندال أمر المشاركة في استعادة النظام في مناطق بريطانيا. أما انتساب «البربر» إلى الجيش الاقليمي فيبدو أمراً مغلوطاً في القرن الثالث.

لم تكن الخدمة في الوحدات المساعدة للجيش الروماني، أكثر من طريقة تهدف إلى استقبال شعوب خارجية. وتبعاً لممارسة قديمة أدخل أباطرة النصف الثاني من القرن الثالث وبشكل جماعي «البربر» ضمن الأراضي الإمبراطورية. هذا ما فعله كل من أغريبا وتيباريوس. فقد أشار ت. بلوتيوس اليانوس سيلفانوس (T. Plautius Aelianus Silvanus) مادحاً نفسه في نص حفره على ضريحه في مناطق خضعت لنفوذه في «التيفولي» بأنه استطاع أن يحضر، في ظل حكم نيرون قرابة 100,000 ألف متحدر من الدانوب مع عائلاتهم ورؤسائهم. وبالمقابل، كانت التجمعات الشعبية خاضعة للضرائب. والحجة كانت الغزو وأمور التهدئة في البلقان، وهذا ما تشير إليه الوقائع إذ أعلن ملوك مجهولون تبعيتهم لروما للمرة الأولى. كما نشير إلى بلوتيوس سيلفانوس الذي تعددت إنجازاته على مرّ الوقت، ما خلق انطباعاً

بنشاط حيوي. كانت الدبلوماسية وبعض التوبيخ كافيين بشكل عام. هدفت عمليات الترحيل التي تعرض لها البرابرة إلى دفعهم للحياة الحضرية، وقد تمّ ذلك باستخدام أراضٍ عامة كان يراد رفع قيمتها. لم يكن البرابرة في زمن الأزمة العسكرية يسعون إلى الربح الذي يحصلون عليه من الغزوات التي صارت متباعدة ومضرة بالإمبراطورية. إذا رغب العديد منهم في الاستقرار حيث تريد لهم روما ذلك على أراضيها، معبّرين عن الرغبة في الالتقاء بقسم ممن هم على شاكلتهم، ممن سبق لهم ان استفادوا سابقاً من الإقامة الدائمة. أما المستوطنون الجرمان وسواهم فلم يكونوا من الفلاحين الجنود. إذ سرعان ما صاروا، دون شك خزان المجندين، الذين اندمجوا في الوحدات الرسمية وراحوا يحاربون حيث تقرر لهم هيئة الأركان العليا. علينا أن نتحاشى الحديث مبكراً عن «جرمنة» الجيش الروماني الذي يجب تفحص محتواه وتحليله بشكل أكثر تبايناً. فالشعوب المختلفة، من فرنجة وشامانيين (Chamaves) وكاربيين (Carpes) وسارماتيين (Sarmates) وسواهم قد بدأوا بإعادة التوطن في الأراضي الواسعة الواقعة على ضفاف الإمبراطورية من بحر الشمال حتى البحر الأسود. بالرغم مما يوحي به فيلم ظهر مؤخراً، فإنه لا يمكننا الاحتفاظ بعبارة «غزوات البرابرة» لنشير إلى كل ما حدث بين عام 238 وعام 284. إذ ثمة سيرورة من تقطيع الإمبراطورية الرومانية، لا هدف محدد لها، كانت قد ابتدأت. وقد بذلت الإمبراطورية وقتاً لتبدي ردة فعل وتعيد بناء نفسها دون أن تكون مضطرة إلى التأقلم على الوضع الجديد وبعمق. لم يكن بالإمكان انتظار النتيجة: فمن جانب الجهات الخارجية عرفت روما مهلة زمنية طويلة لم تعفها من أن تبقى ساهرة.

إن التوسع المكاني كان وبشكل أكيد نقطة الإعاقة بالنسبة للقوة

الرومانية ولسيطرتها التي لم ينازعها فيها أحد. فأعمال العنف الاجتماعي، بما لها من غطاء مالي، والمشاحنات الإتنية والدينية قد أجبرت السلطة الإمبراطورية لتكون متيقظة تجاه أي إنذار جدي. كان الأباطرة على قناعة تامة أن الحفاظ على القوة كان الفعالية الوحيدة، وهم لم يتورعوا من اللجوء إلى القوة في كل مرة كانوا يرون أن ذلك لمصلحتهم. أسهمت استمرارية المؤسسات، وأعمال التنظيم المدني وقد بلغت درجة لم تبلغها سابقاً، ودينامية النخب وسهولة المواصلات داخل الإمبراطورية، كل ذلك أسهم في تعزيز العلاقات السهلة والمربحة. ثم إن العبادة الإمبراطورية قد أكسبت كل الجماعات حماية إلٰهية أصبحت أساسية مع مجيء إمبراطورية روما. استطاع الحكام ومساعدو الأباطرة في الأقاليم، والملتحقون بالفرق العسكرية إحكام الرقابة الدائمة على السكان. لم يكن للإمبراطورية إلا الأعداء، ولم يكن لديها أيضاً إلا أصدقاء ومادحون. وتاسيتوس الذي كان رواقياً بالنتيجة كان يخشى أكثر من أي آخر العزوف والفتور. لقد أدرك وبيقين كلي أن الإمبراطورية كانت عدوه الخاص في كل مرة تترك نفسها لملذات الحرب الأهلية والانقسام القابلة للنقاش. تجاه الانهاك والتعب يشرح س. كفافي (C. Cavafy) في قصيدته أن البرابرة كانوا نوعاً من الحل. فالعناصر الدينامية وواسعة الخيال لم تكن قد اختفت. وطالما كانت السلطة قادرة على فرض نفسها، فلم يكن عليها أن تخشى شيئاً لا مفر منه. فالإمبراطورية التي بنت نفسها بصبر وثبات لم تكن تتوقع أن تنهار فجأة. وعدم المساواة من كل نوع لم يكن الواقع الحصري في المجتمع الروماني أو التي دخلت في الحضارة الرومانية. فالقوى البعيدة عن المركز لم تكن تشد في الاتجاه نفسه. والاستقلالية المحلية، والتعلق بالحاضرة كانا أمرين آخذين بالتطور حتى مع الأقلمة الحاصلة.

الخلاصة

إن تاريخ الإمبراطورية الرومانية ما زال تاريخاً حيّاً وراهناً. ووجود إمبريالية أميركية معاصرة، المؤشر لتفكير تاريخي، لا يمكن أن يكون سبباً ولا نموذجاً. فالمؤرخ، أيّاً كان حقل اختصاصه، لا يستطيع أن يتجرد مما يقع تحت ناظريه، لكن عليه أيضاً واجب اتخاذ مسافة معيّنة وأن يسجل الفوارق، حتى لو كان ذلك من أجل تحاشي استخدام التاريخ بشكل مبالغ فيه أو بشكل منحرف. يمكن لعمل المؤرخ أن يجعل البحث عقيماً. يصبح هذا العمل مدرسة في التواضع والحذر إذا ما وضع في خدمة التزام المؤرخ النقد فيما يقوم به وما ينتجه. تقوم راهنية الإمبراطورية الرومانية على ما تعبّر عنه في أيامنا الدراسات المرتبطة بها من ميول عامة سواء ما تعلق منها بالمادة العلمية الغزيرة (فاللغات اليونانية واللاتينية هي لغات حية، إذ ثمة كلمات جديدة تطالعنا كل عام سواء كانت نقوشاً، أو على أوراق البردي) أو ما تعلق بالبحث في أراضٍ جديدة، إلى جانب مجال التأويلات وتجديداتها.

لا نجاحَ يثير العجب، ولا فشلَ يمكن تحاشيه، إن تاريخ سيطرة روما العالمية هو أولاً ابن المدة الزمنية الاستثنائية في نظر الإمبراطوريات الأخرى. فالبناء الإمبراطوري قد قاوم الشِّيَم الملائمة لأنها تتشابك مع شكل حكم فاعل، هو إرث وتصورات تتبع تقديراً متقطعاً، إن التنظيم الجديد الذي وصفه أوغسطوس قد

أسهم في إقامة السلم الذي يتناسب مع تطور التجارب السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية المختلفة والمفاجئة. فالدولة الحديثة، والملكية التي تحميها السماء، وفكرة المواطنية مصدراً للحرية ومسألة العلاقات بين الخاص والعام وانصهار الغرباء وأهمية القانون والعدالة والبحث عن الفاعلية الإدارية والعسكرية، والاستخدام المنظم لما هو مكتوب في خدمة السلطة كل ذلك يشهد أن البذور كانت مثمرة، وعلى ما مارسته روما من إعجاب على مر العصور. إن غرائبية الإمبراطورية الرومانية في نظرنا، نحن أبناء القرن الواحد والعشرين لا تقل حقيقة عما هي. ولم يكن للمجتمعات التي احتضنتها التصورات التي لدينا عن السلطة الإنسانية والإلٰهية، عن السعادة والقدر والحياة المشتركة والتقدم والموت. فالعقلانية تستمد فعاليتها من الفعل، من الممارسة والتجربة.

إن الحقبة التي ألمحنا إليها هنا كانت حقبة القوة الإمبراطورية التي نالها التهديد في النهاية لكنها استطاعت أن تقاوم حتى النصر. ففي خارج الإمبراطورية كما في داخلها ثمة قوى جديدة قامت بحركات تمرد متتالية، في محاولة منحها لفرض سلطات جديدة أو أشكال تنظيم اجتماعي وسياسي. فالطرق الرومانية والوقائع اليومية قد حمست البعض للانصراف عن سيطرة اعتقدوا أنها جائرة وغير محمولة. لم تطعن في الظهر ولا هي تآكلت بفعل أخطاء لا يمكن تصحيحها، إن إمبراطورية روما التي لم يكن لديها أي مبدأ يحملها على التوحد، لم تختف إلا ببطء. بل كانت ضحية رِهانات منافسة قديمة لا انقطاع لها وقد كرستها من أجل سيطرة طويلة ولامحددة على عالم معروف وضحيته رِهانات تعلُّق الجماعات بحرياتها.

ببليوغرافيا

Andreau J., *Banque et affaires dans le monde romain, IVe siècle av. J.-C. - IIIe siècle apr. J.-C.*, Paris, Le Seuil, « Points H285 », 2001.
Beard M., North J., Price S., *Religions of Rome*, vol. 1 : *A History*, vol. 2 : *A Sourcebook*, New York, Cambridge University Press, 1998.
Belayche N. (sous la dir. de), *Rome, les Césars et la Ville aux deux premiers siècles de notre ère*, Rennes, PUR, 2001.
Carrié J.-M., Rousselle A., *L'Empire romain en mutation des Sévères à Constantin, 192-337*, Paris, Le Seuil, « Points H221 », 1999.
Chastagnol A., *Le sénat romain à l'époque impériale. Recherches sur la composition de l'Assemblée et le statut de ses membres*, Paris, Les Belles Lettres, « Histoire », 1992.
Christol M., *L'Empire romain du IIIe siècle. Histoire politique, 192-325 après J.-C.*, Paris, Éd. Errance, 1997.
Chouquer G., Favory F., *L'arpentage romain. Histoire des textes, droit, techniques*, Paris, Éd. Errance, 2001.
Coarelli F., *Guide archéologique de Rome*, Paris, Hachette Littératures, trad. franç., 2001.
Cosme P., *L'État romain entre éclatement et continuité. L'Empire romain de 192 à 325*, Paris, Seli Arslan, 1998.
Ferrary J.-L., À propos des pouvoirs d'Auguste, *Cahiers du Centre Gustave Glotz*, 12, 2001, p. 101-154.
Goldsworthy A., *Les guerres romaines, 281 av. J.-C. - 476 apr. J.-C.*, Paris, Éd. Autrement, « Atlas des guerres », trad. franç., 2001.
Humbert M., *Institutions politiques et sociales de l'Antiquité*, Paris, Dalloz, 6e éd., 1997.
Inglebert H. (textes réunis par), *Idéologies et valeurs civiques dans le Monde romain. Hommage à Claude Lepelley*, Paris, Picard, 2002.
Jacques F. et Scheid J., *Rome et l'intégration de l'Empire, 44 av. J.-C. - 260 apr. J.-C.*, t. 1 : *Les structures de l'Empire romain*, Paris, PUF, « Nouvelle Clio », 1990.
Le Bohec Y., *L'armée romaine sous le Haut-Empire*, Paris, Picard, 3e éd. revue et augmentée, 1998 [1989].
Le Roux P., *Le Haut-Empire romain en Occident d'Auguste aux Sévères*, Paris, Le Seuil, « Points H219 », 2e rééd., 2003.
Le Roux P., La romanisation en question, *Annales Histoire, Sciences sociales*, 59, 2004, p. 287-311.
Lepelley C., *Rome et l'intégration de l'Empire, 44 av. J.-C. - 260 apr. J.-C.*, t. 2 : *Approches régionales du Haut-Empire romain*, Paris, PUF, « Nouvelle Clio », 1998.

Loriot X., Nony D., *La crise de l'Empire romain, 235-285*, Paris, Armand Colin, « U », 1997.
Mac Mullen (R.), *La romanisation à l'époque d'Auguste*, Paris, Les Belles Lettres, « Histoire », trad. franç., 2003.
Martin J.-P., Chauvot A., Cébeillac-Gervasoni M., *Histoire romaine*, Paris, Armand Colin, « U », 2001.
Mélèze-Modrzejwski J., *Les juifs d'Égypte de Ramsès II à Hadrien*, Paris, Armand Colin, « Civilisations U », 1991.
Millar F., *The Emperor in the Roman World, 31 BC - 337 AD*, Londres, Duckworth, 2e éd., 1992.
Nelis-Clément J., *Les* beneficiarii : *militaires et administrateurs au service de l'Empire (Ier s. av. J.-C. - VIe s. apr. J.-C.)*, Bordeaux, 2000 (Ausonius-Études, 5).
Nicolet C., *L'inventaire du monde. Géographie et politique aux origines de l'Empire romain*, Paris, Fayard, 1988.
Price S., *Rituals and Power. The Roman Imperial Cult in Asia Minor*, Cambridge, Cambridge University Press, 1984.
Sartre M., *L'Asie Mineure et l'Anatolie d'Alexandre à Dioclétien. IVe siècle av. J.-C. - IIIe siècle apr. J.-C*, Paris, Armand Colin, « U », 1995.
Sartre M., *Le Haut-Empire romain. Les provinces de Méditerranée orientale d'Auguste aux Sévères*, Paris, Le Seuil, « Points H220 », 1997.
Scheid J., *La religion des Romains*, Paris, Armand Colin, 1998.
Tarpin M., Roma Fortunata. *Identité et mutations d'une ville éternelle*, Dijon-Quétigny, Éd. In Folio, 2001.
Van Andringa W., *La religion en Gaule romaine. Piété et politique (Ier-IIIe siècle apr. J.-C.)*, Paris, Éd. Errance, 2002.
Veyne P., *La société romaine*, Paris, Le Seuil, « Points H298 », 2001.
Wolff C., *Les brigands en Orient sous le Haut-Empire romain*, Rome, 2003 (CEFR-308).
Woolf G., *Becoming Roman. The Origins of Provincial Civilization in Gaul*, Cambridge-New York, Cambridge University Press, 1998.
Woolf G. (éd. par), *Cambridge Illustrated History of the Roman World*, Cambridge, Cambridge University Press, 2003.

المحتويات

الإمبراطورية الرومانية

ولدت الإمبراطورية الرومانية رسمياً عام 27 قبل الميلاد وانتهت بحسب تعدد وجهات النظر مع احتلال روما عام 410 أو 476 من قبل السقوط. وهو تاريخ سقوط إمبراطورية الغرب نتيجة غزوات الألمان المتعددة.

إبان الفترة الكلاسيكية للإمبراطورية في زمن ثالثها، قام نظام حكم فريد ما زلنا إلى درجة ما من ورثته. فيما يتجاوز سيرة الممالك والأباطرة والأحداث يصف هذا العمل أسس القوة المسيطرة ويقوّم دور ووزن مدينة روما، ويهتم بالشروط التي عاش فيها سكان الأقاليم. يأخذ الصعوبات التي تعرضت لها الإمبراطورية بعين الاعتبار وكذلك الأخطار التي واجهتها.

باتريك لورو

أستاذ في جامعة باريس 13

د. جورج كتوره

من مواليد لبنان العام 1945. ويحمل درجة دكتوراه في الفلسفة من جامعة توبنجن - ألمانيا 1977. ويتولى منصب عميد كلية الإعلام والتوثيق في الجامعة اللبنانية. وهو أستاذ الفلسفة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية.

ISBN 9959-29-367-X



موضوع الكتاب تاريخ

موقعنا على الإنترنت
www.oeabooks.com